عبد الرحمن أحمد الفرهود
بداخلي
كاتب
رواية
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d

بداخلي

كاتب

[مكتبة الحبر الإلكتروني](#)
[مكتبة العرب الحصرية](#)

بداخلي

كاتب

رواية

عبدالرحمن أحمد الفرهور

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2019 م – 1440 هـ

ردمك 978-614-02-3638-7

جميع الحقوق محفوظة

توزيـع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

الفصل الأول	11
الفصل الثاني	21
الفصل الثالث	43
الفصل الرابع	53
الفصل الخامس	61
الفصل السادس	93
الفصل السابع	101
الفصل الثامن	113
الفصل التاسع	123
الفصل العاشر	135
الفصل الحادي عشر	149

الفصل الثاني عشر	159
الفصل الثالث عشر	177
الفصل الرابع عشر	201
الفصل الخامس عشر	211
الفصل السادس عشر	233

إهداء

إلى:

أمي الحنون

أبي الغالي

عائلتي الحبيبة

أصدقائي الأوفياء

وأنتم جميعًا..

ومن ثم لي أنا

مقدمة

لا أحب الكلام الكثير؛ ولكني أكثر من الكلام في بعض الأحيان. أعاني من تشتت في الانتباه. في الحديث أستطيع التركيز بأفكاري، فكرة تجر فكرة؛ ولكن بالاستماع كل ما أحتاج إليه هو التركيز؛ لهذا أتحدث. فأنا تعبت من كثرة الاستماع. قد تكون العناوين واضحة كشمس الرياض في شهر أغسطس، أو مخفية كخطوات عابر سبيل على رمال صحراء الثويرات في يوم عاصف. أنا من هذه المدينة وولدت بهذا الشهر، وبجوار الصحراء مسقط رأسي، أحب المشاركة والتعبير أيضًا؛ ولكن التعبير يخذلني عند المشاركة مع بعضهم. هذه قصتي. للتو خرجت من إعصار، اجتث ما حولي كله وبقيت أنا صامدًا. هنا بعض المذكرات، جمعتها بهذا الترتيب فأنا أهوى الكتابة، ونصحني صديقي مازن أن أضع الكتاب بين أيديكم. لا أعلم، ربما الكتابة هي مستقبلي. الكثير منا يمر بأيام صعبة، وعكات صحية أو كما يقول أبي؛ مرض نفسي. فأنا تجربتي مختلفة. كلها بالورق، إلى أن عشت بين الكلمات. تصفح الورقات مرة أو مرتين، أنا هنا. الذاكرة هي ما تختار أن تزورني؛ فأنا لا أحب استرجاعها. حوادث فقط تجعلنا نعيد التساؤل بهذا النظام كله من حولنا، بهذه القوانين كلها. تجربتي ابتدأت بطائرة، وانتهت فكرة حائرة. أضعها بين أيديكم، لا أرغب بالإطالة. شكرًا للزيارة وأتمنى استمتاعكم.

الفصل الأول

«نحن لا نصنع التاريخ ولا التاريخ
يصنعنا، نحن جزء منه في أحيان،
ونشكك في مصداقيته في أحيان أخرى».

الكاتب

نص تسجيل صوتي

الدكتور حمزة : مرحبًا خالد، هل عندك مشكلة أن يكون أبوك هنا؟

طـــارق : لا. ما أتوقع أن هناك مشكلة.

الدكتور حمزة : أنا أسال خالدًا يا طارق.

خالـــد : لا. عادي يجلس.

الدكتور حمزة : هل عندك مشكلة أيضًا لو سجلتُ هذه المحادثة؟ لأغراض بحثية!

طـــارق : خذ راحتك.

الدكتور حمزة : كان الاتفاق أن نتقابل الخميس بالمقهى. فما الذي حدث؟

طـــارق : ظهر هذا اليوم سمعه أخوه عبد العزيز يصرخ في الدرج. يقول: أخرجهم مني، أخرجهم مني.

الدكتور حمزة : لا توجد مشكلة، كل شيء بخير. كيف أنت يا خالد؟

خالـــد : أشعر بصداع شديد جدًّا، وأسمع صوت صراخٍ عالٍ داخل رأسي. أرجوك أخرجهم.

الدكتور حمزة : هل تستطيع أن تسمع الصراخ؟ هل تميز الكلمات؟

خالــــد : ناس كثير جدًّا تتكلم؛ ولكن أسمع أحدهم من بعيد يصرخ: تعال هنا يا خالد أنا عبد الرحمن. أحضرهم معك، أنا أعيش هنا.

الدكتور حمزة : حسنًا، تناول هذه الحبة ستساعدك على التخلص منهم.

الدكتور حمزة : ناولني الماء يا طارق.

طـــارق : تفضل.

الدكتور حمزة : هل أنت متأكد بأنك خالد؟

خالــــد : لا أعرف.. لا أعرف.

الدكتور حمزة : حسنًا، استلقِ على هذه الكنبة. سترتاح الآن بعد الحبة.

الدكتور حمزة : كيف حالك الآن يا خالد.

خالــــد : خَمول، أريد النوم.

الدكتور حمزة : هل زالت الأصوات.

خالــــد : لا. ما زالت موجودة؛ ولكنها لا تزعجني، الآن أشعر بهدوء.

الدكتور حمزة : هل سبق أن مر بالحالة نفسها.

طـــارق : نعم، قبل عدة سنوات، بعد وصوله من كندا بأيام، لم يستطع أن يطيق البيت بدون أمه وأخيه، وبدأ يصرخ : من أنتم من أنا؟ أنا خالد، موتوا جميعًا.

الدكتور حمزة : متى هذا الكلام؟ هل قابل أي دكتور في ذلك الوقت؟

طـــارق : نعم في منتصف شهر نوفمبر سنة 2012، صرف له حبوبًا ورفضها خالد متوهمًا أنها مع الوقت ستقتله، ستجعله يموت ببطء. وقد سبق لي أيضًا أن داويته عند دكتور في صغره، ووصف له بعض الأدوية وأخبرني بأنه سيتحسن مع الوقت.

الدكتور حمزة : هل سألته عن التشخيص أو الأدوية التي صرفها على أقل تقدير؟

طــــارق : لا. لم أسأله.

الدكتور حمزة : أريد اسمه وعنوانه أو رقم هاتفه، أريد أن أتواصل معه؛ فهذا سيساعدنا كثيرًا.

طــــارق : حسنًا سأذهب إليه بعد غد، وأشرح له كل ما حصل وآخذ رقمه. خالد لا يفضله لهذا السبب؛ لذا دعوتك بأن تعرض نفسك عليه ككاتب؛ فقد كره الأطباء من بعده، ولا أعلم الأسباب.

الدكتور حمزة : ومنذ ذاك اليوم وهو يدعو نفسه خالدًا؟

طــــارق : نعم، والغريب بأنه يتذكر بعض المواقف عندما أضعها على مكتبه بالليل وأحضر له بالنهار وأحدثه.

الدكتور حمزة : هل تقبل موت أمه وأخيه؟

طــــارق : قبل الحادثة لم يتقبل؛ ولكنه كان متأثرًا جدًّا؛ لهذا أودعناه المشفى لبضعة أيام؛ وبين الفينة والأخرى أتحدث معه في الغرفة ويبدأ بالبكاء، ثم ينام وينسى كل شيء، ويعود خالد كما يدعو نفسه، يظن أنهم قادمون. لم يموتوا بالنسبة إليه.

الدكتور حمزة : هل تعرض لشيء، أو حدث له شيء اليوم.

طــــارق : لا. كان وضعه طبيعيًّا جدًّا. كنتُ جالسًا أنا وأخوه وأخته في صالة الطعام نشاهد مباراة الهلال والنصر؛ إلى أن سمع أخوه عبد العزيز صوتَ صراخ من الدرج؛ فدعاني وصعدت وحدث ما حدث. وكما ذكرت سابقًا سمعته يقول : أخرجهم مني. وكانت بجانبه أوراق المذكرة التي ذكرت بأني وضعتها على مكتبه، وجدته كتب هذا أيضًا.

بعد دقائق من القراءة...

الدكتور حمزة : إذًا لقد عرف بموت أمه وأخيه. اتفقنا على المذكرات التي تظهر له من التي لا تظهر في هذه الفترة بالتحديد. كيف وصلته هذه. لمعالجة الذاكرة تدريجيًّا، يجب أن نستذكر الذكريات الجميلة، لا النكسات والمصائب. كثرة الضغط تزيد من تضاعف الحالة.

طــــارق : لم أكن أعلم أنه كان يملكها؛ ربما كانت في درج مكتبه. لا أدري.

الدكتور حمزة : هل سبق وأن ذكر أنه أي شخص آخر؟

طـــارق : سبق وأن ذكر أن اسمه رامي وأنه من لبنان؛ ولكن كان ذلك على سبيل المزاح فقد كنا نضحك فقط، وكان صغيرًا لم يتجاوز الابتدائي، وأنت تعرف أغلب المسلسلات الكرتونية مدبلجة باللهجة الشامية؛ فقلت في نفسي ربما قد تأثر بهم؛ فلم يكن اسم خالدٍ الاسمَ الأول الذي عرَّف به عن نفسه بدلاً من اسمه.

الدكتور حمزة : هل اختلف سلوك عبد الرحمن عن رامي.

طـــارق : لا. هو ابني، فقط كان يمزح، ويحاول تقليد اللهجة.

الدكتور حمزة : متى سبق له ذكر اسم خالد. بدأ يغط بالنوم الآن.

طـــارق : قبل حوالي ست سنوات، وهو في الثانوية. حضر لي يومًا من الأيام وبيده ورقة مكتوبٌ فيها، فقد اعتاد على التدوين وأنا مطلع على كتاباته منذ الصغر، منذ المتوسط تقريبًا، يحضر إليّ كل فترة وأخرى ويريني كتاباته؛ طفلٌ أقبل على الشباب ويبحث عن المدح؛ ولكن في يوم من الأيام أحضر لي ورقة مكتوبة؛ ولكنها لم تكن من تدوينه، كانت مختلفة أشبه بالقصة أو الحكاية.

الدكتور حمزة : وخالد؟

طـــارق : هنا ذكر لي بأنه وجدها على مكتبه بتوقيع شخص اسمه خالد. ضحكت حينها وظننته يمزح، ومن بعدها ظل يحضر قصصًا وحكايات ويقول : بداخلي كاتب ويضحك، كان دائمًا ما يقول سوف يُسيء الناس فهمي، لا أفهم هؤلاء البشر.

الدكتور حمزة : حسنًا، كيف كانت طفولته.

طـــارق : عادية جدًّا، مثله مثل أي طفل آخر، يلعب ويأكل ويبحث عن الاهتمام.

الدكتور حمزة : وأقرانه؟ أصدقاؤه في المدرسة؟

طـــارق : لم يكن لديه الكثير، كان لديه مازن الذي رأيته بالمشفى ذاك اليوم وجاء معي للموعد.

الدكتور حمزة : أعرف مازنًا فقد تحدثت معه، أظن أني يجب أن أتحدث معه أكثر لمساعدة عبد الرحمن، أحتاج إلى معلومات أكثر لتشخيص الحالة؛ فالتشخيص هو ثلاثة أرباع الحل، والكثير يهمل التشخيص، ويعمل على الحلول.

طـــارق : كلي ثقة بك يا دكتور.

الدكتور حمزة : ومَن هي سارة؟ قرأتُ اسم سارة في المدونات التي ناولتني إياها الأسبوع الماضي. وكذلك في القصائد والأشعار.

طـــارق : لا أعلم من هي، من الممكن أنه قابلها هناك ولم يحدثني. سأبحث عن المزيد من المذكرات في أدراجه فمن الممكن أن أجد عنها شيئًا. ولكنه منذ صغره وهو يحاول نَظْم الشعر، لا أعرف إن كان ينظم لأجلها أم لا.

الدكتور حمزة : وسلطان؟

طـــارق : سبق وأن قابلته في إجازة عبد الرحمن الأولى. شاب بسيط، أظنه الآن يعمل هنا بالرياض.

الدكتور حمزة : تواصل معه؛ أريد أن أتكلم معه، سيساعدني كثيرًا.

طـــارق : ما رأيك الآن يا دكتور، هل فقد ولدي عقله؟

الدكتور حمزة : لا تقل هذا، فالأمل كبير، والوعكات النفسية كالجسدية يتعرض لها أي شخص، نحن بني البشر رُزقنا الوعي، ومع الوعي تأتي الاضطرابات النفسية، فحادثة فقدان أمه وأخيه، ولا نعلم ماذا حصل أو من الممكن أن يحصل في كندا، شيء ضاعف المصيبة، مع البحث سنجد عبد الرحمن؛ ولكن الجيد حتى الآن والذي يدعونا للتفاؤل بأنه لم يحاول الانتحار إلى الآن. لا تخف فهناك حلول.

الوقت متأخر الآن، ويجب أن أرحل، لدي أكثر من حالة غدًا في الصباح الباكر، والمشفى قد شارف على الامتلاء من المرضى. حالته ليست بذاك السوء. تشخيصي المبدئي أنه مصاب باضطراب الشخصية؛ ولكن على الأرجح أنه يعاني من تعدد في الشخصيات؛ فحاول

الهرب إلى خالد عندما ضعف عبد الرحمن جدًّا؛ وخالد يعاني من الاكتئاب؛ فلا تخف الحالة بسيطة؛ أحتاج فقط إلى أن أقنعه بأني أهوى كتاباته وأناقشه بها إلى أن نصل إلى حل، أنا لا أحب استخدام الأدوية إلا إذا اضطررت إلى ذلك؛ ولكن لم تجلب لي الكثير من الأوراق، أحتاج إلى كل ورقة في البيت كتبها سواء سابقًا أم لاحقًا؛ وسأقرأ هذه الصفحات لعلني أعرف ما حلَّ به؛ ومن الممكن أن نتمكن سويًّا من تذكيره بأن لا وجود لخالد.

طـــارق : سآتي معه غدًا، ولكل حادثٍ حديث.

الدكتور حمزة : لا. سيبقى معنا هنا في المستشفى حتى أجد عبد الرحمن، قرأت القصة في المدونة، التي ذكر بها موكلي والرفاق. لم أستشف منها أي شيء؛ لذا يجب أن أعيد قراءتها فمن الممكن بأنه ترك بعضه هناك وبإمكاني أن أجده؛ لا أظن أن بداخله كاتبًا، أظن أنها أكبر من ذلك كثيرًا، من الممكن أنه بداخل الكتاب. سأبدأ معه غدًا صباحًا، فقط ناولني مدوناته، ولا أريد أن يرحل إلى المنزل فينتكس وتعود إليه الحالة نفسها، لا أريده أن يضر نفسه. أراك غدًا.

4/1/2015

الفصل الثاني

«كلٌّ منا يصنع عالمه المثالي
بطريقته، أنا أجدكم جميعًا
مثاليين في كتاباتي».

الكاتب

(1)

وُلدت في مستشفى المطار، والمضحك أن أول طائرة أستقلها في حياتي كانت إلى كندا بتاريخ 2009/1/2م. في كل يوم جمعة يصحبنا أبي إلى الصالات في مطار الملك خالد الدولي بالرياض، الصالة الدولية بالتحديد، نصعد إلى صالة كبار رجال الأعمال، ويبدأ أبي بالتعريف بالطيارات والخطوط، وكذلك بالطيور التي كانت تشارك المسافرين أرض المطار، ننهي الفقرة ونذهب إلى المطعم، نشتري الغداء ونرحل إلى المنزل. المرة الوحيدة التي ركبت فيها الطيارة لم أتعرف إلى أي شيء عنها سوى أنها كانت تابعة للخطوط الإماراتية. الجميع يتزاحمون أمام الباب وكأنهم سيطيرون قبلنا. ركبت وأنا أشعر بأني في حلم.

لم أتقن إلا بعض الكلمات من اللغة الإنجليزية ولم أتفوه بها خجلاً من أن يضحك من حولي عليّ، «باقي ساعتين»، يقول العربي الذي يجلس بجانبي بعدما حدثني عن تجربة هجرته من مصر إلى تورنتو قبل اثنتي عشرة سنة: لا أريد أن أصل إلى تورنتو وينال النوم مني؛ خصوصًا بعد إحدى عشرة ساعة من الطيران المتواصل. مرت المضيفة وبيدها إبريق القهوة، دلفت الكلمات من فمها ولم أستطع تمييز أيٍّ منها، ابتسمتُ وأومأتُ برأسي موافقًا، فأعادَتْ ما قالتْ فكررتُ الموافقة، ضحكت وأخذت الكأس وملأتها ورحلت. التفت جاري المصري وقال: كانت تضحك، وتقول:

- إذًا ارفع كأسك لأسكب لك القهوة وأنت تهز رأسك.

ضحكت وقلت:

- من المؤكد أنها تعاملت مع الكثير من أمثالي هنا سافروا لأول مرة؛ فهي تسافر يوميًّا.

تبسم وهو ينظر من النافذة إلى الجناح وكأننا سنسقط بعد دقائق وقال:

- كلنا هكذا للمرة الأولى؛ إلا من حالفه الحظ وتعلم قبل ركوبه.

- أنا عبد الرحمن من السعودية.

قال بلغة أفهمها:

- وأنا سامر.

سكت لدقائق ثم قال:

- في تورنتو اجتهد في تحسين لغتك الإنجليزية أو لغة الإشارة فأنت ستحتاج إلى التواصل.

تبسمت وقلت:

- لغة الإشارة دولية ولا تحتاج إلى تعليم، أما الإنجليزية فأتمنى أن أنالها قريبًا.

بدأ الثلج يغطي تورنتو ويزينها؛ منظر لن أنساه ما حييت، تخيلت لو أنى كنت ممسكًا بالجناح وأطير كما تطير الطيور. لن أحتاج إلى جواز أو جنسية؛ ولعلي كنت أفكر بصوت عالٍ. ضحك المصري وقال:

- وما الذي يجعلنا نتغرب ونرحل سوى المعاملة الحسنة والمعيشة الطيبة، الكل منا يحاول أن يصنع حياة وربما يجدها في مكان مختلف، نحن كالطيور ولكننا جعلنا الحياة أصعب بكثير مما هي عليه. هل ستكون هنا وحدك أم جئت مع أحد من معارفك؟

وأنا أتأمل تورنتو الكبيرة من نافذة الطيارة الصغيرة:

- لا. أحد أقاربي يعيش هنا، رجل كريم اسم على مسمى. سأتواصل معه حالما أنزل. يقول إنه نسق لي سكنًا مع عائلة هنا.

نشترك أنا وسامر صديق الرحلة المصري حب الممثل يونس شلبي؛ بسيط ولكن بامتناع، ودائمًا ما يظهر التشتت والبعثرة تمامًا، أشعر بأنه يتحدث إليّ بمشاهد كثيرة. سأحاول أن أرتاح قبل الوصول إلى تورنتو؛ لعلها تكون تجربة مثيرة. وهنا تبدأ رحلة تورنتو.

2/1/2009

(2)

وأنا جالس هنا بين زحام العامة، في تيم هورتنز شابرد وينق شمال تورنتو، أحتسي قهوتي الصباحية وأتأمل المشاة، وأصنع قصصًا من العدم. خارج المقهى ومن خلال الزجاج أرى فتى لا أظن أنه يفارقني في العمر، وملامح وجهه قد تعودت عليها وليست غريبة عليّ.

دخل، وبعد دقائق أحسست بنخزات في كتفي:

- المعذرة يا أخي هل لي أن أضع حقيبتي عندك، أريد استخدام دورة المياه.

- نعم، بكل تأكيد.

أتأمل الثلوج المتساقطة على رؤوس الناس. يذكرني جدًّا بأمي. أي شيء أبيض كبياض قلب الأم، والثلوج البيضاء تزين الأرصفة أمامي، والشاحنات تجول الطرقات محملة بالملح لإذابته. جمال الثلج من خلف الزجاج لا يعادله جمال. ولكن إذا تعديت الزجاج تجمد كل ما بك وكأنك خالد الذي عاد للتو من رحلته. ابتسم وشكر لي وأخذ حقيبته وهمّ بالرحيل، استوقفته، لم يدعني عقلي ألاَّ أشبع فضولي، لن يضحي بهذه الأسئلة كلها ويكتفي بالتكهنات فقط.

- أنا وحدي هنا، والأجواء بالخارج لا تشجِّع على الرحيل، هل تمانع أن أشتري لك كوبًا من القهوة، دعنا نتبادل الحديث ويشكو كلٌّ منا للآخر هذه الغربة المقيتة، أكاد أشم رائحة الوطن فيك.

لم يعارض. وقفتُ وسألته:

- أي أنواع القهوة تشرب، أو ما الذي تفضله؟

- قهوة سوداء، بدون إي إضافات.

رد وكأني أجبرته على الجلوس. ما هذه السوداوية؟! بدأ عقلي بإطلاق الأحكام، أحضرت القهوة وجلست أمامه، تفضل وقدمتها له، رشف رشفة ثم نظر إلي وبدأ يتشكل وكأني للتو أمسكت بيده وأخرجته من بحيرة مليئة بالتماسيح، بل وكأن تمساحًا ما كان قريبًا جدًّا من الاستمتاع به على وجبة الغداء. ابتسم. قلت له:

- لا داعي للشكر، أخبرني ما اسمك؟

ابتسم وقال:

- خالد، ولكني لست خالدًا، أنا هنا لعدة سنوات فقط أو من الممكن أن أعيش معك إلى الأبد.

ومن يجيب عن سؤال ما اسمك هكذا؟ اكتفيت بخالد فقط، ودار حوار بعقلي فامتنعت عن التفوّه به. قال لي:

- وأنت ما اسمك؟

- عبد الرحمن، للتو وصلت إلى هنا منذ شهر بالتحديد. هل أنت مثلي تدرس اللغة؟

- نعم.

تبسمت وأنا لا أكتفي بنعم أو لا، وسألته:

- لغة فقط أم تحصيل أكاديمي أيضًا؟

سكت لثوانٍ وقال:

- لا أعلم حتى هذه اللحظة. وأنت؟

خطف نظري وأنا أنظر إلى النافذة، في الخارج مجموعة من عمال البناء قد تلونت ملابسهم بالصبغ، يرتدي كل واحدٍ منهم وزنَه من الملابس الشتوية ويحاول العمل في منتصف الثلوج.

- أنا قصتي مختلفة قليلاً.

قال:

- وما الذي جعلك تختار كندا وتورنتو بالتحديد؟ فالأغلب يختارون فانكوفر في كندا أو بلاد العم سام؟

سكت لثوانٍ وأنا أرتب أفكاري.

- أنا لسبب ما وقعت بحب جامعة تورنتو.

سألني بدهشة:

- ولماذا جامعة وليست فتاة أو سيارة.

أجبت وأنا أعلم بأن أفكاري تتجمع عندما أتحدث، وعندها أعرف نفسي أكثر:

- الأحلام هي ما يجعلني أعيش. الحب يجعل بعضنا يتنفس، والمال يجعل بعضهم يرى الحياة. أما أنا فالأحلام تجعلني سعيدًا، الأمنية بأن غدًا أجمل، والأشياء ستتغير، وأن كل شيء بيدي وسأغير كل شيء.

قال وكأني لم أشبع فضوله:

- ولماذا جامعة تورنتو بالتحديد؟ وهو يتبسم.

ضحكت:

- أتحقق معي.

قال وهو يريد أن يثبت براءته:

- لا لا، ولكنني أعيش بالقصص ومن أجل القصص.

تبسمت وأنا أرى وجهه تلون بالأحمر الفاتح. وكأن وجهه يستقبل الدماء من جميع أنحاء جسمه.

- لا، لا عليك. كنت أمزح.

تنفس الصعداء وقال:

- بعض الناس لا يحبون المشاركة وأنا يغلبني الفضول في كل الأحيان.

في الحقيقة بحثت عن كندا في البداية ووقعت بحب الجامعة من النظرة الأولى. هل تعلم بأن تاريخ الجامعة يرجع إلى ما قبل تاريخ الدولة، كانت منارة في وسط تورنتو. بدأتُ المذاكرة، طرقت جميع الأبواب حتى وصلت إلى هنا. ولما تجولت في الحرم الجامعي بالقرب من محطة سينت جورج، جعلتني مبانيها وأزقتها أشعر وكأني في مدرسة هوجورتس، وكأن هاري ابن بوتر سيكون أحد زملائي بالفصل. منذ أن كنت في الصف الأول ثانوي كنت أرغب في الابتعاث، وكسر كل الحواجز، فأنا إنسان منعزل بطبيعتي لا أحب مخالطة الناس، فرأيت بأن الابتعاث سيجبرني عليها ولعلي أتعلم.

تبسم وقال:

- وعلّك تعلمت؟

- ليس بهذه السهولة؛ بل تدريجيًّا، بإذن الله نبدأ بك أنت.

ولعل نظرية القهوة السوداء أثبتت عدم صحتها في عقلي الآن.

- وما الذي جعلك تقرر للصف الأول ثانوي بالتحديد؟

- الحياة هي التي جعلتني. بالصف الأول ثانوي، بدأ أبي بمعاملتي كرجل مستقل، في يوم من الأيام وبعد أن أصبحت من نومة عميقة وغسلت وجهي وصليت فرضي، دخلت على أبي وإذا به يتلذذ بقهوة الصباح الذي اعتاد ألاَّ يتأخر عليها أو أن تتأخر عليه، قبلت رأسه وجلست بجانبه وأخذت فنجاني وسكبت قهوتي، كان أبي مركّزًا جدًّا في شاشة حاسوبه وهو يقرأ تبسم وقال: تعال وشاهد، هذا برنامج ابتعاث للخارج، يبتعثون إلى أمريكا وكندا وحتى السويد. ابذل جهدك وأطلق جناحيك، اغتنم التجربة. ابتسمت وقلت: لعلي في يوم من الأيام. لم أعلم بأن تلك الجملة ستعلق في عقلي إلى هذا اليوم، ربما دفعني إلى ذلك حب التجربة، قال لا أرى أي سبب آخر يجعلني أحمل متاعي إلى النصف الآخر من العالم. القهوة السوداء وكما توقعت. قلت له:

- نعم من الممكن أنك حضرت للسياحة، أو للعلاج. أما أنا فأحاول أن أبدأ حوارًا.

وأنا أحاول كسر الحواجز. سكت لثوانٍ وقال:

- أعلم ولكن أحب أن أشرح عن نفسي كثيرًا، لا تأخذ هذا من باب الإهانة أرجوك، أحب الشرح حتى لا أُفهم بشكل مخطئ وبالعادة لا أنجح.

- جميل، عمومًا هل أنت من عشاق كرة القدم؟

السؤال الوحيد للموضوع الوحيد، كرتي الأخيرة لتغيير هذا النقاش إلى مكان أكثر متعة، ومن منا لا يحب كرة القدم في ذاك المكان من العالم.

ابتسم وقال:

- لا. لست من متابعي الرياضة بشكل عام. أحبها وأعرف بعضَ قوانينها؛ ولكن في الوقت نفسه لا أحب تضييع الوقت فيها.

- تضييع وقت؟ آه، كل منا يعرفها كما يشاء.

بدأ الناس يتوافدون وبدأ المقهى بالزحام، وتوافد عمال البناء لأخذ جرعتهم من الكافيين. يبدو على خالد عدم الارتياح مع ارتفاع أصوات الزبائن.

سكتُّ لثوانٍ وسألته:

- على فكرة في أي المستويات أنت.

جاوبني:

- أنا أدرس في المستوى الأول.

ابتسمت وبتعجب أخبرته بأني أدرس في المستوى نفسه؛ ولكن مع معلمة أخرى. مصادفة جميلة وفرصة موضوع قادم نتحدث عنه.

جميل لقد نفذت قهوتي، ومعدتي أيضًا، سأذهب وأعيد شحن هذا الجسد الذي أوشك على السقوط. خذني معك أرجوك، فقد حان وقت غدائي منذ ساعتين؛ ولكن لما عرضت عليّ القهوة لم أستطع أن أرفضها وتوجب علي غذاؤك. لا أحب الرسميات والاجتماعات الرسمية، أحبها عفوية. كلنا في غربة والكل محتاج، الكل يدفع عن نفسه كما يفعل أهل البلد، إذا كنت في روما فافعل كما يفعل الروم. نحن لسنا في روما وأنا لست روميًّا، ليتك تذكرت هذا قبل أن تعزمني على كوب القهوة. استسلمت وسلمت، أي المأكولات تشتهي؟ عربي، إيطالي، هندي، أخبرته بأني أعرف مطعمًا وما أشتاق إليه من طعام. ستأكل أفضل شاورما بتورنتو. ابتسم وقال:

- لم الانتظار؟ أين يقع هذا المطعم.

أخبرته وأنا أعلم اشتياقي واشتياقه:

في وسط المدينة، على تقاطع جيرارد وينق بالتحديد. مطعم لعائلة تركية نطلق عليه كلمة حجي، فهو يكررها كثيرًا. يعمل الأب والأم في الصباح، رأساهما تزيّنا بالشيب. يبتسم الأب أول ما يرانا، ودائمًا ما ينهي الطلب بكلمة "شطة"، يحاول إيصال مبدأ التسامح والقبول. هي ولو تغيرت مسمياتها طعمها واحد. ومن بعدها يبدأ بالخصام مع زوجته باللغة الأم، دائمًا ما أقول لأصدقائي إننا نحتاج إلى مصلح اجتماعي وإلا ستختفي الشاورما.

ضحك خالد، وقال:

- نمشي للموقع أم نحتاج إلى قطار أنفاق؟

- لا. سنحتاج بالتأكيد إلى قطار. دندس، هل سمعت بدندس؟

- تقصد الميدان؟

- نعم دندسنا نحن! كلهم هناك، كالنحل حول خلية، الخلية باقية على حجمها والنحل إلى ازدياد، هل تعلم ما أجمل من العسل؟ الشاورما لدى حجي. ضحك وقال: هل تربح من إعلاناتك أم أنك متطوع. ليس تطوعًا ولا ربحًا ستعلم لماذا؟ شاورما، أرجوك خذني إلى الشاورما، طال اشتياقي وطال غيابها وضحك.

7/1/2009

(3)

رحلنا تلك الليلة إلى المطعم، تجاذبنا أطراف الحديث، وأعجب أشد الإعجاب بالأكل. تبادلنا الأرقام وما زال الفضول يملؤني.

هذا الإنسان غامضٌ جدًّا، لا يفصح بالكثير ولا يتكلم عن نفسه كثيرًا؛ لكنه أخبرني أنه يحب القراءة والكتابة، وولعه الشديد بالمشي، يقول إنه يساعده على التركيز، والاكتشاف والتجربة.

وحينما سألته من أنت يا خالد؟ أنا أمام عينيك كتاب مفتوح اقرأني كما تشاء. والأغرب ولعه الشديد بالرقم ثلاثة، وعندما سألته عن السبب، أخبرني بأنه رجل فردي، بالأصح قال الكلمات هذه؛ لا تسألني وتعاتب لا اميز الصادق من الكاذب. الكل يسطر ويعبر ولكن من هو الكاتب. إذا كنت تبحث عن القائل تجدني بالخط المائل. ضحكت وقلت: لعل القراءة قد قضمت نواة عقلك، قال: أعيش بالصفحات وللصفحات، وضحك.

تأخر الوقت. ودعته ورحلت إلى العائلة الأجنبية التي كنت أعيش معها في تلك الأيام.

7/1/2009

(4)

اتصلت بخالد واتفقت معه على اللقاء في المقهى القريب من الجامعة، ليريني إحدى كتاباته، كلي شغف بمعرفة هذا الرجل. لما أشارت عقارب الساعة إلى الخامسة، بدلت ملابسي وخرجت واستقليت الحافلة المتجهة شمالاً 106 من محطة داونزفيو، أتأمل الوجوه. من أجمل الهوايات التي اكتسبتها في هذه المدينة هي التأمل. القطارات، والباصات تحمل بشرًا من جميع أنحاء العالم، يتحدثون مختلف اللغات، وبديانات مختلفة. هنا في تورنتو يتحدث البشر بأكثر من مائة لغة، ولا يهم أي اللغات تتحدث وأنت على متن الباصات، فمن المستحيل أن تحس أنك غريب عن هذه الأرض. التزاوج بين الأعراق بين بني البشر في هذا المكان يجعلنا نرى جمالاً آخر لم تتعود عيناي على رويئته من قبل. حتى اندماج المطابخ، والثقافات. كندا، وكما يقولون هم، أشبه بالفسيفساء. كل ثقافة تشكل بصنع هذه اللوحة الأجمل. وليست كدول أخرى مجتمعاتها أشبه بقدر امتلأ نصفها بالماء، ترمي فيها من المكونات ما ترمي؛ ستخرج لك وجبة واحدة فقط. المشهد هنا فيلم واقعي تخترق من خلاله أطياف هذا المجتمع وتركيبته.

أنا أبدأ هنا. ترجلت عند نقطة توقفي، وإذا بي أجد خالدًا ينتظر بالخارج في البرد القارس، وكأنه جمل في منتصف الصحراء، لا يرى رمالاً، كل ما يراه هو بياض الثلوج فسفينة الصحراء لن تعوم بالثلوج. تعجبت وسألته:

- لِمَ لا تدخل؟

بعد أن تبادلنا التحيات:

- لا أستطيع الدخول إلا إذا طلبت، ولا أستطيع الطلب إلا إذا حضرت أنت. أدخلنا يا رجل فقد فقدت إحساسي من شدة البرودة.

اليوم، وكما وعدني خالد قد أحضر لي أقصوصة من كتابته كما يقول، لم يتوقف عن الحديث عنها البارحة، وضعها بين يدي وأخذنا نتبادل الحديث ورحل. عدت إلى المنزل وأنا كلي شغف بقراءة ما كتبه خالد.

8/1/2009

(5)

اليوم الجمعة الموافق 2009/1/9، بالأمس عشت أول عاصفة ثلجية في حياتي. قبل أن أخرج بالأمس إلى الجامعة حدثتني صاحبة المنزل الذي أعيش فيه، وأخذت تشرح لي بالإنجليزي ويداها تسبحان بالهواء، تحاول أن تشرح ما لا تستطيع بالكلمات، لم أفهم ما تقوله ولم أكترث، هممت إلى الباب وأخذ صوتها يرتفع، وأخذت رغبتي في الرحيل ترتفع أيضًا. حضرت الدرس في ذلك اليوم ولكن لم يكن هناك الكثير من الحضور من جانب زملائي الطلاب. بعد انتهاء الدرس خرجت إلى الممر الرئيس الذي يكون بالعادة مكتظًّا بالطلاب والأصوات مرتفعة وكأنك في حراج بن قاسم في جنوب الرياض، مع الاختلاف الجذري بالوجوه والمواضيع المطروحة. ولكن اليوم كان الحضور قليلاً جدًّا. حملت حقيبتي وتوجهت إلى المنزل، وكانت المفاجأة عندما خرجت لم أكن أستطيع أن أرى ما الذي أمامي، أو حتى خلفي، لا أستطيع أن أرى أي لون سوى البياض. عاصفة ثلجية شديدة جدًّا. الآن فهمت ما كانت تحاول أن تقوله لي صاحبة المنزل جوردانا اليوغسلافية، ركبتُ الحافلة وتوقفت عند نقطة توقف بجانب المنزل الذي يبعد ما يقارب الخمسمائة متر، أطول مسافة مشيتها في حياتي، كأني جذع نخلة تلاعبه الرياح لم تعْتَد على الثلوج، كل ما فيَّ تجمد، عدت إلى البيت، وجسمي كمن مشى مملكة جنكيز خان على أقدامه.

أنا أعيش داخل دوامة الآن. سأسرق بعض الدقائق ليستريح جسدي بالقيلولة. اليوم أنا على موعد مع خالد في المقهى نفسه. أغلقت مذكرتي وأغمضت عينيّ لما يقارب الساعة، وذهبت إليه مبكرًا هذه المرة.

أنا أيضًا أحب التدوين، بدأت به منذ الصغر، الخطابات التشجيعية في أفلام هوليوود، هي أحد أكثر المشاهد التي سرقت انتباهي. في طفولتي لم أكن هادئًا، كنت مفرطًا في النشاط بعض

الشيء، كان الشارع أهم ساحات النزال؛ لكن لم أكن أشارك البقية، كنت أذهب إلى رحلات أنظمها بنفسي، لم أكن الأفضل بكرة القدم، أو ناجحًا في التعليم، كنت مختفيًا عن الأضواء نهائيًّا.

كنت الطفل الذي هناك وليس هناك في كل الأحيان؛ ولكن في يوم من الأيام بالصف الثالث متوسط، دخل الفصل أحد أساتذة التاريخ، ولعل التاريخ يكرر نفسه، أستاذ تاريخ هو من جعلني أدون التاريخ، دخل علينا بشكل لم نعتده من المدرسين، ولكنه كان اعتياديًّا جدًّا من شخصه الكريم، دخل ويبدو عليه الاستياء وأخبرنا بأننا حثالة لأن عددًا من الطلاب كانت أصواتهم مرتفعة وهم يتحدثون فيما بينهم في وقت الفراغ؛ فقرر بأن من حقه أن يصرخ بأعلى صوته، وأخبرنا بأننا نكرات، أليس لدى أي منكم موهبة، هواية ينميها في وقت فراغه؟ ذاكر، اقرأ كتابًا، أو حتى اكتب قصة، أو اكتب حدثًا عائليًّا لتعيد التاريخ يومًا من الأيام إلى الحياة، في كل الحالات لا أريد أن أسمع صوتًا.

لم أرَ أحداثًا عائلية مثيرة للاهتمام لأدونها، ولو دونتها مَن سيهتم بما أدون. ومن بين كل ذاك السواد، وتلك الجمل المحبطة بالصوت المزعج، قررت أن أبدأ بتدوين الأحداث، كل ما أرى، أو أسمع أو أتكلم من منظوري طبعًا وبدأت بالرحلات، ولكنني لا أستطيع الكتابة في المجال الخيالي، أو الإبداعي؛ أما خالد فيملك الموهبة، لا أريد أن يقف الرجل في الخارج. حضرت هناك ولم أجده، أنا المبكر هذه المرة، حرِتُ هل أقف أمام الباب أم أدخل وأنتظره في الداخل، لا أعرف هذا الرجل أو طبائعه أخاف إذا دخلت أن يعدها إساءة، سأنتظره هنا، وليأكل البرد ما تبقى مني بعد ليلة البارحة. بعد دقائق قليلة.. ها هو خالد قد وصل.

حالما جلسنا سألني:

- ما رأيك بالذي قرأته، أنت أول الأشخاص الذي تجرأت وعرضت عليه بعض شخابيطي، أريد نقدك وليس مدحك.

تبسمت وقلت:

- نقدي كثير بالعادة، ولكنك تحتاج إلى مدح، كوني أول الأشخاص الذي فتحت لهم هذا الباب. العمل بشكل عام جميل؛ ولكن لماذا الكوميديا؟

- هذا الكتاب، أنا أول ما ذكرت لي أنك تكتب لم أتوقع أن يكون بهذا الأسلوب نهائيًّا.

أجاب:

- أنا أكتب بأساليب مختلفة ولكن هذا الذي اخترت أن أريك إياه، هو أجملها بالنسبة إليّ. كل الشخصيات قريبة مني، لست كاتبًا بارعًا ولكن أرى بالكتابة حياة أخرى، وسيلة للعيش.

- ولماذا الكوميديا إذن؟

- بدأت الكتابة الساخرة منذ سن صغيرة، أظن أنها مهارة اكتسبتها بعد وقت صعب، ولدت ونشأتُ بلا أسنان إلى أن بلغت الثامنة عشرة ومن بعدها ولدت لي الابتسامة على يد دكتور أسنان. الجميع يطلب مني الابتسامة ولكن لا أعرفها، لقد ماتت بداخلي. هكذا هي الكائنات الحية تتشكل بالبيئة التي تعيش بها وتتغير لتناسب اختلاف البيئة. تطورت السخريةُ عندي خلال السنوات هذه كلها كوسيلة دفاع بدون أن أشعر أو حتى أن أفكر بالموضوع، لم أتعرض لتعليقات كثيرة ولم تعد السخرية من الآخرين مطلبًا لي مع تغير البيئة؛ ولكن ظلت السخرية تتبعني إلى أن خرجت بالشكل الذي قرأت.

لقد بدأ بالمشاركة فسألته:

- هل تقصد موكلي ورفاقه!

- نعم، نعم. الظروف تحدد من نحن في بعض الأحيان، نطلق عليها اسم حظ. يجعل منا تجاوز الظروف أشخاصًا نتفاخر بالماضي الصعب، وكيف تجاوزناه وصنعنا مجدنا هذا؛ ولكن في حالتي أنا جعلتني الظروف أهرب إلى الكتابة. لا أتحكم بأي أسلوب، أكتب كل ما أجيد كتابته، أضع كل هذا الزخم العاطفي في صفحة بيضاء، كانت بداياتي مع الكتابة الساخرة. نظر إليّ بتعجب وقال: هل العمل جميل؟

استغربت وكأن رأيي سيبث الحياة في هذه الأوراق:

- العمل جيد إلى حد غريب، سبق أن ذكرت لي بأن رغبة الابتعاث كانت ترافقك منذ الصغر، وموكلي أيضًا يريد السفر، هل أنت موكلي، هل هذا جزء منك أم إنها مؤلفة لا أصل لها

بالواقع؟

سكت وكأنه لا يريد الإجابة.

- البطاريق هل تعرف عنها؟

نظرت إليه بتعجب:

- نعم أعرفها، تقصد الطيور؟

- جميعها، أنا كل التبعثر الذي يظهر عليها.

قال وهو ينظر إلى كأس قهوته الساخنة:

- الطيور التي لا تطير. يقال إن أجنحتها تحولت إلى زعانف.

بدأ خالد يتحدث عن الحياة البيئية، والنظام البيئي لساعات، يقول إنهما أحد اهتماماته التي تساعده على فهم البشر فنحن جزء من منظومة أكبر بكثير من نظام اقتصادي فقط، منظومة حتى البطاريق شريكة فيها. بينما نحن نتبادل أطراف الحديث، أخذ قهوته ولكن مع ملعقة سكر هذه المرة؛ كان تفسيري لتلك الحادثة بأن الحياة بدأت تحلو له، كنت حينها لا أزال مؤمنًا بنظرية القهوة السوداء؛ ولكن بطُلت النظرية وزاد السكر في كوب خالد، لم تكن مصادفتي له كأي موقف عابر قد تعرضت له في كندا، بالعادة أستطيع أن أتنبأ للقصص الجميلة؛ لا يكون الكتاب واضحًا من العنوان في بعض الأحيان، والعنوان هو الكتاب في أحيان أخرى.

عمومًا أبدى لي خالد اليوم امتعاضه من السكن الذي يعيش فيه، ومن رب المنزل الإيطالي ماريو. يقول لي خالد ويداه على فمه، لا أعتقد بأنه قد تحدث عن هذه الأمور من قبل؛ فهو ليس بالرجل الاجتماعي، ولا أتوقع أيضًا بأن القدر قد وضعنا على طريق واحد. يقول خالد إنه يعيش بالطابق العلوي مع فتاة كولومبية تدعى ماري تعيش معه في العائلة نفسها ويتشاركان كلاً من المطبخ وغرفة المعيشة. يقول خالد وعيناه مليئتان بالفرح إنها أجمل من رأى تمشي على تراب هذه المجرة. ولو كان قد بالغ بالوصف فمن وجهة نظري كان خالد كتلةً من المشاعر تحتاج إلى تفريغ، فهو يهوى الكتابة والجمال، ويقضي جزءًا كبيرًا من يومه في غرفته لعل الحسناء قد سرقت قلبه. يقول خالد إن العادة جرت بأنه إذا أشارت الساعة إلى الخامسة مساءً تبدأ جوردانا بطهي الطعام،

ويعشق يوم الخميس كون ماريو هو من يعد البيتزا الإيطالية بالدجاج خصيصًا له، أما الجمعة فالطبق لا يحمل سوى الخضروات، وكما يبدو لي فإن خالدًا ليس من أشد المعجبين به؛ بل جلوسه معي إلى هذا الوقت المتأخر أكبر دليل. يشارك خالد الانطوائي خمسة طلاب آخرين ويعيش البقية في القبو. فجوردانا قد بنت ملجأ للطلاب وليس منزلاً لعائلة. طاولة الطعام بالإضافة إلى ماريو وجوردانا. لم تكن سهلة على خالد كونه لا يجيد التحدث بالإنجليزية، وماريو لا يترك خالدًا يتلذذ بالسكوت فيوجه له دومًا أسئلة كثيرة، وخالد يجيب ويصيب في بعض الأحيان، ويتوه التعبير في اللغة في أحايين أخرى. يقول خالد: أود لو أستطع أن أكتب له رسالة وأضعها تحت بابه ليقرأ ويسكت ويكف عن إحراجي أمام ماري.

بعد نقاش ماتع بيني وبين خالد في ذلك اليوم، وقد عانقت عقارب الساعة الصغيرة الرقم سبعة، حمل خالدٌ حقيبته وشد الرحال إلى بيته.

حياة خلقت في الرياض وهنا تبحث عن ذاتها. ونحن على لقاء بأن نتقابل في الغد الساعة الثالثة.

9/1/2009

الفصل الثالث

«في مخيلتي ألف حكاية وحكاية،
وقصص تريد الشرود، بقلم يريد أن
يُدون، تريد العيش بالحبر، تريد الخلود.
وبين ذلك الركام كله في عقلي
المنهك وجدتكِ فكرة؛ بل قصة أو رواية
أو مجلدات؛ ولكن الأجدر والأحق بأنك
أحلام يقظة».

الكاتب

(1)

سطور هذا الكتاب أتنفس بها. ارمِ قطعة نقدية عشر مرات، واحسب عدد المرات التي يظهر بها كل وجه، ومن ثم ارمها مائة مرة لن تتغير الاحتمالات كثيرًا. ولكن للأسف لا تأتي الحياة بوجهين، أو بعملة واحدة. من الخطأ أن نتعامل مع كل قرار وكأنه مجموعة احتمالات فقط، وكأن المعطيات لا تتغير في كل موقف وفي كل وقت.

حديثي مع خالد قبل أسابيع جعلني أشعر بأنه ليس غريبًا. أخذتني الذاكرة بعيدًا بعدما فتحت المدونة ووجدت صفحات من أيام عجاف، فعندما كنت بالمتوسطة، ظهر لي كاتبٌ اسمه خالد، لم أكن أشعر به بشكل جسدي، ولكن كان يمر عبر أوردتي ليسطر حروفه على أوراقي، لا أتذكر متى أو كيف، كل ما أتذكره بأني كنت أستيقظ صباحًا لأجد صفحة على مكتبي، شيئًا لم أعتد كتابته من قبل، ويُذيله اسم خالد.

حدثت أبي عن الموضوع الذي بدوره أشاد بهذا الإبداع، لا أظن بأنه يصدقني، أظن بأنه يعتقد بأني مجنون؛ لهذا أخذني إلى دكتور المجانين كما يدعوه ابن جارنا مركى، ظللت لأشهر أحضر لأبي كتاباتِ خالد، في البداية كان يقرأ ويبدي إعجابه إلى أن ذكر لي يومًا من الأيام بأن الوضع بدأ يفلت عن السيطرة، ليس هناك خالد، توقف عن هذا، هذا أنت، أنت من تكتب هذا، لم يحاول أن يفهمها أو حتى أن يحاول قراءتها، يأخذها ويمزقها وينهرني.

(2)

أنا هربت من الخارج إلى هنا لسبب ما. في أول البدايات كان الفرح يفاجئني بعد أن أجد أوراقًا على مكتبي؛ ولكن بعد كلام أبي أردت أن أعرف من يضع الأوراق على مكتبي، بالأمس لم أستطع أن أغمض جفني ولو لدقائق، لم أرَ ورقًا ولا مخلوقًا آخر في هذه الغرفة سوى عنكبوت قد انتقل للعيش في خزانتي قبل أسبوع، وتوصلت معه إلى اتفاق غير شفهي يجعل الخزينة ملكه؛ ولكن الغرفة كلها ملكي لا أحد يعكر على الآخر صفو جوه؛ ولكن هل هذا الخالد هو من كان يضع الأوراق على مكتبي والآن يتبعني؟ لا أظن فأنا للتو قابلته منذ أيام، ولم يزرني خالد أو يضع أي شيء على مكتبي منذ سنين.

في يوم أغبر لا أنسى تفاصيله، أخذني أبي بعد نصيحة من أحد أصدقائه إلى دكتور نفسي. لا تخف يا ابني الجميع يمر بما تمر به نفسه، الجسد يتعب وكذلك النفس، دخلنا غرفة الانتظار، وحدد أبي بلمحة سريعة المقاعد الفارغة. جلسنا والجميع يحاول كسر الهدوء، الكل يريد التحدث وشرح لماذا هم هنا لسبب ما، والغريب بأننا جميعًا ننتظر شخصًا يأخذ مقابلاً ماديًّا للاستماع. دخلت فسقطت عيني على الدكتور، أظن بأنه يحمل الجنسية العربية، كبير الجسد عريض الوجه، ارتسم نصف وجهه بالابتسامة ورحب بي وأول شيء ذكره لي بأنه ليس هناك أي داعٍ للخوف أو القلق لأني بخير وشخص طبيعي.

تبسمت وسألته فطالما كنت أرغب أن أعرف:

- هل أنت شخص طبيعي؟

بدأ جسده يهتز من الضحك وبالأخص وجنتاه العريضتان وقال:

- ما الذي تقصد بطبيعي؟

- أقصد هل أنا مثلك؟

- لا يا ابني؛ فبعضنا يحتاج إلى عناية ومتابعة، ما قصدته هو أنه لا داعي للقلق، كل شيء سيكون بخير، فقط حاول أن تساعدني لو سمحت وأنا سأساعدك؟

استغربت من الإجابة:

- ولو أنت مريض نفسي الآن؟ كيف تعلم؟ هل تشخص نفسك؟ أم يأخذك شخصٌ ما إلى دكتور؟ أظن أنك رأيت الكثير اليوم.

تبسم أبي بخجل وقال:

- ما عليك منه يا دكتور، هو يحب المزاح.

ابتسم وكأنه اعتاد على هذا المنظر وقال:

لو تعذرنا يا طارق وتنتظر خارجًا أريد الحديث معه على انفراد.

كل العوالم إلى السكوت إلى بعد أن خرج أبي وأغلق الباب خلفه وبقيت أنا.. وهذا لنفتح بابًا آخر من الحديث. بدأ بالأسئلة الشخصية وأنا لا أحبها كثيرًا.

- تحدث يا بني، لا تخف فلن يخرج ما تقوله من هذه الغرفة.

مساحة للحديث، الصمت في حضور هذا الرجل مرض.

- لمَ يتلذذ الكثير منا بإطلاق الأحكام؟ ليس لسبب ما ولكن لأنها تجعلنا في بعض الأحيان نشعر بأننا أفضل، أو تعني لنا النجاح، هل لي بأن أسألك سؤالاً؟

- تفضّل يا بني.

- ما النجاح؟ يختلف التعريف من شخص لآخر، فنجاح بعضنا عائلة حوله يجعلون من هذه الحياة مكانًا أجمل، وبعضنا يحب المال ويسعى إلى جمعه، وبعضنا الآخر يبث الحب في أوردته

حياة ليعيش يومًا آخر، ولو قررت أن أجعل نجاحي مقياسًا لنجاحك، هل ستكون فاشلاً رغم سعادتك بإنجازك المتواضع؟

سكت لثوانٍ يدون بقلمه الرصاص والدفتر. من يعلم ربما كان يكتب أحكامًا هو الآخر. رفع عينه وقال:

- لا نهائيًّا. بعضنا يا بني يستعجل بالحكم على الناس، لأن مقياس نجاحه هو البشر، النفس لها حق بأن نفهمها ونفهم متطلباتها ولا نملي عليها رغبات الآخرين، نحن مختلفون جينيًّا، وقدراتنا العقلية مختلفة، حتى البيئة تصنع كثيرًا منا، وكيف نستقبل الأشياء ونعالجها؛ ولكن لماذا هذا السؤال؟ هل تعرضت لمضايقة في المدرسة؟

أجبته باستنكار وهو لا يزال يزيد من احتكاك القلم مع الأوراق.

- لا.. لا بالعكس، أصدقائي المقربون يتفهمون بأن هذه مجرد أفكار، يتقبلون الاختلاف.

رفع رأسه الكبير، وقال بصوت هادئ:

- هل هناك قصة تريد مشاركتها؟

- نعم هل تعدني بأنك لن تحكم علي أنت الآخر.

- أعدك بذلك.

سندت رأسي إلى كرسي جلد أسود.

منذ صغري رزقني الله بابن خالة ورفيق درب اسمه عبد الرحمن هو الآخر. أنا أكبر منه بستة أشهر؛ ولكن هذا هو الاختلاف الوحيد بيننا، تجولنا في صغرنا في أماكن كثيرة لنستكشف هذا العالم، وأنا ما زلت فضول.

- تعليم ذاتي منذ ذاك الوقت إلى يومنا هذا وأنا أحاول أن أجعل من كل فكرة معنى بعقلي، أريد أن أفهم ولا أجعل من وجود الأفكار برأسي خِزانة بلا أي فائدة، فأنا أستخدمها بين الوقت والآخر. في حي عبد الرحمن كان يعيش رجل مجنون كما يقولون؛ ولكني أظن بأنه مختلف إلا إنه لم يلقَ أي اهتمام من أحد. في يوم من الأيام كنت بالصف الخامس على ما أعتقد. استعرت من أمي

خمسة وعشرين ريالاً ورحلت أنا وعبد الرحمن وأخي عبد العزيز إلى سوق تبعد ما يقارب كيلومتر من مقر إقامتنا لشراء قميص فريقي المفضل، وبينما نحن نتمشى في الشوارع، نستطلع عالمًا مختلفًا، وأخي عبد العزيز الذي يصغرني بسنتين خلفي، قطعنا الشارع، وبينما نحن بالجزيرة على الرصيف بمتوسط شارع ثلاثين، رأيت من بعيد شخصًا قد غطى وجهه الشعر، لا يتضح لي أي جزء من وجهه، كان ممسكًا بخيشة أرز، بدا الهلع أيضًا على عبد الرحمن: هذا هو المجنون، اهرب اهرب.

أخي عبد العزيز توقف، وكانت ركبتاه لا تستطيعان حمله، بدأ الأشعث يركض باتجاهنا، وأنا أدفع عبد العزيز بيدي كلها وبكل ما أوتيت من قوة اهرب هيا. قطع عبد الرحمن الشارع ومن ثم عبد العزيز وأنا الأخير بدأت أركض وأنا لا أرى سوى الحياة على المنتصف الآخر من الطريق، التفت لأسرق نظرة أخيرة وأسكت هذا القلب الذي هو الآخر يريد الهروب من شدة الخوف، التفت وإذا به يفترش خيشته وبلا سابق إنذار أسمع صوت الفرامل وسيارة ليست بعيده تحاول التوقف. أرى أخي عبد العزيز وعبد الرحمن قد وجدا الأمان على الجهة الأخرى من الشارع، سقطت بعد ما صدمتني السيارة بسرعة خفيفة. حملت نفسي وأكملت الركض وكأني أهرب من الموت، ترجل قائد المركبة وبدأ يصرخ: تعال، تعال.. وكأنه يريد المساعدة، لم توقفني هذه التجربة عن المغامرات؛ ولكن أظن بأن أحدًا يجب أن يسمعها حتى لو كنت أنت، هل تظن بأنه كان يريد أن يلحق بي ضررًا، أو أنه أراد أن يفترش الرصيف وظن بأن هؤلاء الأطفال يلعبون معه، من بعدها حاولت أن أفهم البشر، لأفهم دوافعهم ولكن بلا أي جدوى. هل لي بسؤال آخر؟

تبسم وتعابير وجهه تقول: أنا من يسأل الأسئلة في أغلب الأحوال:

- تفضّل يا بُني.

- لو أننا جميعًا متشابهون ونتفق على كل شيء وقررت في يوم من الأيام أن تصطحب أحد أصدقائك إلى السينما أو معرض فني؛ ألن ترى رسمتك أو فلمك؛ لأن الفكرة تتبلور من عقل واحد ودافع واحد؛ لهذا الاختلاف جميل. نعم أعلم أن الاختلاف جميل ولكن للأسف الاختلاف مرفوض أيضًا. إذًا لماذا أنت هنا؟

رسم ابتسامة من الواضح أنه لم يتعود على الكلام. الاستماع هو ما يجيده، قال:

- تركت القيود كلها، أساعد الناس على معرفة أنفسهم أو حتى لحد الخطر.

- ولكن هل أنا خطر؟ أنا أعرف من أنا لهذا لا أتنافس مع بقية البشرية أنا اختار معاركي ولا تُملى علي. لم أضر أحدًا أو أحاول أن أضر نفسي.

ابتسم وقال:

- أخبرني أنت، لماذا أنت هنا؟

- لم يكن خيارًا، مجبر أخاك لا بطل، قد ساقني أبي إلى هنا، وأنت ما الذي تريده مني؟

- أريد مساعدتك.

جلسنا لساعة وهو يتحدث بكلام لم أفهم منه أي شيء، دعا أبي وناوله الوصفة الطبية ورحلنا، حاولت قراءتها ولكن خطه لم يختلف عن خطي كثيرًا. وهو أيضًا لم يختلف عنهم كثيرًا فقد حكم علي من دون أن يعرف من أنا. أسندت رأسي إلى النافذة وأبي يقود السيارة إلى المنزل. في تلك اللحظة علمت بأن الاختلاف غير مقبول. الاختلاف يعني المرض، يعني الأدوية. كيس كبير من الأدوية؛ شيء لخالد وأشياء لضغط الدم، ليحد من الأعراض الجانبية للدواء الأول.

15/2/2009

الفصل الرابع

«كل الأصابع تتجه إليَّ، حتى إصبعي
لم يعد يعلم اتجاهه».

الكاتب

(1)

أغلقت المذكرة ولا أعلم من كتب هذه الكلمات. لا بد أنه أنا. كتبت قبل ثلاث سنوات تقريبًا، حاولت من خلالها تصور لحظة أسرفت بالوصف، ولكن اللحظة لم تزل لم توصف ولو نصفها، ما زال لدي أسئلة كثيرة، وأعاني من صداع شديد جدًّا من الإضاءة شبه المعدومة: شمعة ومكتب متهالك وتقويم أمامي، هذا المنظر ليس غريبًا جدًّا. الأفكار تتوافد عليّ من كل صوب وحدب، وأشعر بأني كنت مختفيًا لأيام، هل للتو استيقظت من سبات شتوي سيلحقه ربيع زاهر؟ أريد القراءة؛ ولكن تراودني فكرة في رأسي تحتاج إلى تدوين خلال فترة التطور البشري إلى أن تضاعفت أرقام البشرية خلال القرن الأخير. رغم وجودنا لآلاف السنين؛ إلا إننا قفزنا الآن. هذا الجيل الذي قرر أن يعمل كجزيئات على شكل خلايا نحل، مجتمعات مدنية، أفراد على شكل ذرات في أرض كبيرة، نشكل مفهوم الطبيعة، ما الجمال. كحدائق سنغافورا الصناعية. ولماذا لا يُذكر السكان الآخرون من المخلوقات الحية غير البشر، ككلاب موسكو أو قطط الرياض أو قرود ريو دي جانيرو أو حتى راكون تورنتو أو جرذان جدة. وهل من العقل أن ندمر هذه الأرض التي وفرت لنا سبل الحياة كلها عليها من آلاف السنين، نحرقها ونذيب جليدها، بدون أي حياة أخرى، داخل مجمعات ومحميات.

وتربعت هنا أحببت الثلوج بعد الصحاري. وما زلنا نقتل كل شيء جميل على هذه الأرض؛ نقطف الورود ونقطع الشجرة ونلوث البحار، من أجل أن يربح رجلُ أعمالٍ، ثروتُه عشرون مليارًا، مليارًا آخر، ولو عاش بدون ربح طول حياته لن يصرف ولو ربعها. لقد جعل التقسيم غير العادل للثروات من المال عصبَ الحياة وليس مطلبًا، جعلنا نعيش لأجله، نبحث عنه لا عن الحياة. هل استكثرتم علينا الحياة. ربما رزقت بترابط أسري أو عائلة تحبك أو زوجة جميلة تهواك؛ ولكن

ستحتاج إلى المال عاجلاً غير آجل، لا عيش بلا مال في هذا العالم؛ ستنعم بحياة طبيعية إلى أن تحتاج إليه ولا تجده.

ها أنا اليوم بعد أن أمضيت سنة في كندا وكان لا شيء قد تغير؛ الكل متشابه بالملابس، بالملامح، بالتصرفات، الكل متشابه. وأنا أشبههم كثيرًا، بكل شيء؛ بالحب المتطرف، والميول المتطرفة، نحن قوم لا نشجع الرياضة للمتعة أو للميول؛ نميل بتطرف، ونعشق بإسراف. موسيقانا حزينة بل مسرفة بالحزن، يلطم المغني وينحب المُطْرَبون. لم أخرج من فترة طويلة؛ لا أعلم ما الذي يحدث في الخارج ولا أهتم. بعيدٌ عن هذا التشتت، أحتاج إلى الرحيل إلى مكان أفكر به بشكل أصفى.

قطع حبل أفكاري صوتُ أخي عبد العزيز الذي كان يخبرني بأن الغداء جاهز، ولن يبدأ أحد نصيبه من هذه المأدبة التي تعدها أمي إلا بوجودك. آه يا أمي كم عشقت طبخك، هي الوحيدة التي تجيد صناعة ألذ المأكولات بأسرع الطرق. عندما كنت شابًّا في الثانوية، كان اليوم الذي بدأت فيه كتابة مذكراتي هو أحد أيام الحقبة تلك؛ حقبة الدلال والنعيم والرغد. كنت أعود من المدرسة وأتسمَّر أمام شاشة الحاسوب، رفيقي الوحيد في تلك الأيام، أطالب بالغداء وكأني كسرى وطلباتي مجابة، وإذا لم يجهز الغداء خلال دقائق لن آكل. بدأت بالإضراب عن الطعام لسبب غير مقنع، لإرضاء كبريائي. أمي أطال الله في عمرها حاولت أن تستحدث طرقًا لخالد ليجهز الأكل الذي يريده في زمنه المحدد، أطعمته السمكة ونسيت أن تعلمه كيف يصطاد. قطعت حبل هذه الأفكار المشوشة وحملت نفسي إلى الغداء. افترشتُ الأرض، سفرة بلاستيكية وأرز مدجج باللحم والخضار، أخذت أداعب اللحم، وألم ذاك الاشتياق كله ليس للطعام فقط بل للحياة، للوقت الذي كنت لا أفكر فيه بشكل مفرط. لا يزال الحوار يدور. سأل أبي ويبدو عليه الاهتمام:

- كيف حالك؟ هل تشعر بتحسن.

- الحمد لله أنا بخير، كنت جائعًا فقط.

سارة التي لطالما فكرت بها لا أعلم أين هي الآن.

- لا تعلم يا بني حجم سعادتي وأنت تأكل وجبتك معنا هنا.

التزمت الصمت، ما زال الصداع شديدًا. لدقائق ثم قلت:

- أعاني من صداع الأيام الماضية.

التفت أبي:

- هل ما زلت تأكل الفيتامينات التي صرفها لك الطبيب؟

- نعم ما زلت.

رفع أخي عبد العزيز رأسه وسأل السؤال المعتاد:

- هل ما زلت تبحث عن صديقك عبد الرحمن؟

- نعم، نعم.

- ومتى ستجده.

هممت برأسي وقلت:

- قريبًا جدًّا بإذن الله.

- ضحك أخي فنهره أبي. لم أكن مهتمًّا بتلك المحادثة نهائيًّا.

عدت أدراجي بعد أن أنهيت غدائي إلى غرفتي القديمة، عدت من جديد أبحث عن أي ورقة، أي ذكرى تحملها لي. الوقت يمر هنا كالسلحفاة، وأنا إما أن أكتب أو أدون، والتاريخ إما أن يُدَّون أو يُقرأ، على الأقل في حالتي فأنا أشعر بأني في عالم كبير جدًّا.

11/11/2012

(2)

بحثت عنها وصورتها، ووجدت المدونة. جعلت قراءتي للمدونة أوراقي كلها تتبعثر؛ ذكرياتي وتاريخي. لا أتذكر عبد الرحمن كثيرًا؛ لذا أحتاج إلى البحث عنه والتواصل معه، هل يا تُرى ما زال يكتب؟ وأين انتهى به المطاف. لا أعلم كيف أصل إلى عبد الرحمن الآن. ولكن خطرت لي فكرة محاولة للقائه مرة أخرى في منتصف الظلمة، على مكتبي الخشبي المتهالك. طرق الباب أخي عبد العزيز وفتح الباب وأدخل رأسه. هل أنت هنا؟ نعم أنا هنا. هل أشعل الأنوار لا أرى جيدًا هنا. فقط قد خطواتك تجاه صوتي وستجدني. أشعلت شمعة على المكتب بأعواد ثقاب دفعت بالتقويم الذي لا يفارق مكتبي بالعادة وأستعين به كثيرًا لمعرفه التواريخ؛ تبدأ أيامي عادة بالصفحة الأخرى من التقويم إلى آخر صفحة ليلة رأس السنة. الدخان ما زال يتطاير من العود حتى بعد انتهائه. ما الذي يشغل بالك؟ وأنا أبحث هنا بالأدراج قبل قليل وجدت مدونة من عبد الرحمن، لا أتذكر الكثير من تفاصيل ما كُتب بين سطور هذه الصفحات، يبدو أنها قديمة أيضًا، أريد أن أعرف المزيد. قرأت هنا بأنه معجب بكتاباتي، هل بالإمكان العثور على عبد الرحمن؟ اقترح أخي عبد العزيز: لمَ لا تغمس نفسك أنت بالكتابة، ودع عنك سواد الأفكار، وأنا سأتحدث مع أبي، نعم جميعنا يجب أن نجد عبد الرحمن. كيف حالك اليوم؟ أنا بخير وأنت كيف حالك؟ رد عبد العزيز أنا بخير طالما أنت بخير. لا. لا تطفئ الشمعة حتى تنتهي من الكتابة، وأنا سأنشرها في المدونة التي أنشأها لك بينما كنت في تورنتو، وأعلن عنها في شبكات التواصل الاجتماعي. أنشأت مدونة بمساعدة أخي عبد العزيز، تكملة ما قد رآه عبد الرحمن في يوم ما عالمي الخاص، لعله يلقى حياة بين الصفحات ويقرأ كلامي، بحثت في أوراقي عن تكملة القطعة فوجدتها، أريد أن يعيش عبد الرحمن وأن يجدني أو أجده، لست أعلم إن كان الرجل يبحث عني كما أبحث عنه الآن؛ ولكن الموت هو وحده من يجعلنا متلهفين على لقاء من نعرف ومن لا نعرف، الموت هو القدر الوحيد لاختفاء الأشياء وانتهائها،

اللحظات التي عشناها ستنتهي بعد حين، والذكريات التي توثقها سترحل مع الراحلين بعد حين. صداع نصفي شديد، أظن بأن النور سببه. قضيت تلك الليلة وأنا أملأ الأوراق. خلدت إلى النوم وأنا منهك الجسد والعقل، وكأني للتو كتبت نصف كتب بغداد التي غيرت لون نهر الفرات. في أولى لحظات ذاك الصباح، تركت الأوراق تحت باب عبد العزيز، وتركت عليها ورقة «انشرها أرجوك».

11/11/2012

الفصل الخامس

تناثر أفكار

«لكل نظرية غيرُ منظورٍ؛ ولكن قد تكون
المحظورات جزءًا منها».

الكاتب

(1)

في قرية صغيرة في عالمنا هذا تدور بها الأرض دورتها اليومية حول الشمس، تطل عليها الشمس كما تطل على عواصم الدول الأخرى، أهلها طيبون، قلوبهم لا تحمل الحقد والضغينة، فقلب واحد من قلوب هؤلاء الناس كفيل بأن يحمل الأرض بمن عليها.

كان يعيش رجل اسمه موكلي، يقتسم مكانًا للعيش لم يجد له تعريفًا، فكان يدعى باسم «استراحة» لم يكن موجودًا قبل وجود هذا الشخص العظيم موكلي، بعيدًا عن اختراعاته العظيمة بشتى المجالات الفاسدة، كانت الاستراحة أحد اختراعاته المسلوبة، وبلا وجه حق. كان موكلي طويل الوجه مستطيل الجسم، يملك ملامح رومانية ممزوجة بإغريقه قديمة، يقال إن أصول موكلي تعود إلى جبال الألب، كان أبوه خبازًا في قرية تدعى حنتوشة، في ذلك الجزء من العالم، كان رأس موكلي أشبه بالبطّيخة التي طال بها الزمن في مزرعة يديرها رجل طاعن في السن يسقي هذه البطيخة يومًا ويتركها أسابيع، فقد أكل عليها الزمن وشرب، أما فم موكلي فكان أشبه بحرف الباء إذا كتب بخط الرقعة، مع الأخذ بعين الاعتبار بأن النقطة تحت حرف الباء هي شعر قليل قد نبت تحت فمه يعلن تشكيل حرف باء جميل في إطار تلك البطيخة. كان موكلي رجلاً كريمًا نبيلاً، أحمقَ في كل الأحيان، وكانت الاستراحة أشبه بثكنة عسكرية في بدايات القرن التاسع عشر.

حقيقة بين طيات التاريخ يكتبها الراوي، فجدار الاستراحة الأمامي كان على وشك السقوط لولا الحياء. كان موكلي أو كما يزعم هو بقوله بأنه كان سياسيًّا، ولكن وضعه الفعلي أو كما يعدُّه العامة رجلٌ عاطلٌ يقضي يومه بمتابعة التلفاز ليخرج كلمات لا قيمه لها، ولا تصنع أي معنى منطقي يسميها هو "تحليلات سياسية ". كان يقتسم تلك الاستراحة مع ثلاثة من زملائه؛ شمامة ودمور وآخرهم يدعى لؤي، ويقال إن وظائف أصدقائه الثلاثة كانت مترامية في تلك القرية؛ فشمامة

- مثلاً - والذي سمي بذلك نسبة إلى رأسه الأشبه بالشمام الفاسد، والذي يشارك موكلي الكثير من الحماقة؛ يعمل في المجال التعليمي؛ فهو مدرس لمادة التربية البدنية في مدرسة القرية للصفوف الثانية، يقول لنا أحد الإخوة إنه شاهده بأم عينيه وهو يحاول تطبيق سباق وثب في مضمار بالكاد يحمل موكلي بدون رأس، فكان يضطر أن يخرج رأسه من السياج ليشاهد السباق وهو يتذمر من سوء التنظيم. كان هاويًا للرياضة، فكان مشجعًا كبيرًا لفريق القرية؛ بل يُقال إنه دعم النادي مرة من المرات بإهدائه للاعبين أجواز أحذية لا يُعلم مصدرها حتى الآن، كان قريبًا جدًّا لموكلي، بل عدَّه موكلي صديقه الذي يتبادل معه الحلول السياسية على حد قوله.

دمور أيضًا أحد أعضاء هذا الائتلاف العظيم، يتسم بالصمت، ويدير رأسه مع أي شيء يتحرك، مروحة هواء، مروحة شفط، مكيف متحرك، سيارة مسرعة، أي شيء متحرك بإمكانه أن يسرق انتباه دمور بسهولة؛ بل كما قيل أو كما سمعنا إنه في أولمبياد شمامة عجَز دمور عن إيقاف رأسه بسباق الألف متر فعلق رأسه بجانب رأس موكلي، قبل أن تتكفل الجهات المعنية بإخراجهما. يعمل في القطاع البنكي، محب للمال، جيد بالعد، سيئ في التجارة، يجيد جمع الأموال والطوابع حتى العلب الفارغة، فهو رجل يمتاز فعلاً بالجمع، وللأسف يتشارك مع الآخرين بمعدل الحماقة نفسها وبكامل حقوقه في الاستراحة، بيد أنه لا يشاركهما تحليلاتهما السياسية كونه يعدها مضيعة للوقت.

الشخصية الأخيرة في هذا الكيان العظيم لؤي، الذي يختلف عنهما تمامًا، فهو يملك شخصية نرجسية فاضحة متغطرسة، كما قال الأدباء، إلى حد قدميه، يرى بنفسه العلم والثقافة والأدب وهو من ذلك خالي الوفاض؛ بل لا يملك أدنى علم وكفى بذلك، مقتنع جدًّا بأنه لم يختر هذه الرفقة إلا لتناسبهما مع برستيجه الخاص كما يزعم، وحتى لو قال وردد بل وحاول أن يقنع وبرر وتحدث، فانبطاحاته مع تلك الزمرة تجعل كبار العلماء في هذا الكون يعتقدون بأن هذه الاستراحة سبب رئيسٌ في ثقب الأوزون. كان لؤي يتعارض في آرائه مع شمامة وموكلي ليس انتصارًا لمبدأ ما ولا لفكرة؛ بل لكونه مختلفًا عن البشرية، كما يظن هو، لؤي الطالب الوحيد في هذه الاستراحة والطالب الوحيد الذي لم يتخرج منذ سنين عجاف، حاول وحاول ولكن لم تكن المحاولة وحدها كافية بأن تضع حلاً للمهزلة الفكرية التي تحدث في عقله، كان متخصصًا بعلم الاقتصاد ونحمد الله بأنه لم يتخرج وإلا لظهر الفساد والكساد في الدنيا، وأوقع البشرية بأيام شداد.

في يوم كسائر الأيام وفي ليلة سوداء بين أسوار متهالكة وسقف أوشك على السقوط، وبينما شمامة يتأمل التلفاز والمقدم يحكي عن مأساة حزينة وشمامة يقلب عود الأسنان بفمه ويحك رأسه بعنف في موقف يستشعر به بأن المقدم يتحدث عن حدث سياسي لا يفهمه إلا شمامة بذكائه المفرط؛ كونه من المتخصصين بكشف المؤامرة الدائرة من القرى المجاورة كما يصور لؤي الموقف، ينزل شمامة يده ليلتقط كأس الشاي ويرتشف القليل منه بصوت جميل كون تيار هوائي كان على وشك أن يجر رجلي دمور إلى فمه قبل أن يتدارك الوضع ويعيد الكأس إلى مكانها. يلتفت شمامة إلى صديقه دمور ويخبره بأن أسعار اليقطين بشمال البلاد قد يرتفع نتيجة زيادة المحصول في قرية مجاورة.

هذا الكتاب، لا يعكس مصداقية الراوي. يواصل شمامة بقوله ليمد قدمه اليمنى ويخبر دمور الصامت بأن الدنيا في خطر، وبأن اليقطين سيجبر الناس على بيع بيوتهم كونه كان يُستخدم في صناعة القنابل النووية، ضربة ستحدث قريبًا يا صاحبي.

كان دمور يدير رأسه مع المذيع لاشعوريًّا في الوقت نفسه الذي كان المذيع يحرك به يديه لشرح قضية لا تمت بأي صلة بما كان يتفوه به شمامة. ولو علم المذيع ما كان يتحدث عنه شمامة لشمر عن ساعديه وضربه حتى يعضَّ الأرض.

قطع الحديثَ دخولُ لؤي بشكل أشعث يسحب رجله اليمنى ويحك شعر وجهه المتجعد، أخذ يوزع الابتسامات هنا وهناك، يحاول أن يلتقط أي كلمة في هذا النقاش العقيم ليدلي بدلوه، التفت برأسه يَمنةً ويَسرةً، ليجد اثنين منبطحين على أرض فرشه متمزقة الأطراف يحاولان أن يصنعا نقاشًا من العدم. أخذ لؤي مقعده وأخبرهما بأن صديقه علوي سيحضر ذلك اليوم، سأل شمامة من هو علوي، كون الاستراحة لا تسع إلا لأربعة أشخاص، ولو حضر خامس لاعتذرت منه واضطر أن يحصل على ضيافته في منتصف الطريق. أخبرهم لؤي أن علوي رجل نحيل الجسم وكبير الرأس وشعر رأسه الخشن كبير جدًّا لو رأيته بالصحراء وحده لظننت بأنه مشروم بري عملاق. يصفه لؤي بوصف دقيق وشمامة ينظر إليه بعين واحدة ممسكًا بطرف شنبه: إن علوي إذا ركض يضطر إلى فقدان توازنه من ثقل رأسه، بل لو سقط في الماء فإنه ينقلب رأسًا على عقب. تعوّذ شمامة من إبليس وقال: حيَّاه الله. على فكرة ماذا يشتغل الرجل، من باب السؤال عن أحواله فإن كان بحالة جيدة نضمه معنا بهذه الاستراحة المفلسة، وإن كان لا يملك سوى ملابسه ففراقه غنيمة. أجاب لؤي بأن علوي خريج كلية تقنية بدبلوم معلوماتي لا يفقه منه سوى أن الدبلوم يحمل علومًا لا يعلم

عنها شيئًا، تخرج علوي من تلك الكلية بهذه الكمية من العلم، عملية عجيبة، عمومًا الرجل يعرف كيف يبحث في الإنترنت، قال شمامة: يصير خير.

في مكان آخر في الوقت نفسه من هذا العالم الجميل كان موكلي منبطحًا على بطنه فوق كثبان رملية ذهبية برفقة الراوي لتدشين مستقبل هذا البطل العظيم، والحديث عن بعض إنجازاته، ويستفيد كما يدعي من قدراته العقلية. كان يدّعي بأنه مفكر ولكن المشاعر لم تكن من اختصاصه، أو إنه لم يتوقف للحظة إلا ويفكر بها، كان يظنها ستعرف بنفسها كما عرف شمامة بنفسه أول مرة، ولكن القدر شاء بتقديرات أخرى. فقبل سنوات وبينما موكلي يمارس «التسحب» أمام الاستراحة، صادف عبلة وسقط من طوله، لما سأل الراوي عن تفاصيل أكثر عن اللقاء عبر عن تحفظه على الإجابة. يقول موكلي إنها سحرته لأول وهلة وكأنها ملاك قد سقط من السماء ليقوده إلى حلمه، أنا من صغري أحلم؛ ولكن لم أجد الدافع للحلم، لم أجد شيئًا أعمل من أجله.

أتبع موكلي يقول:

- أحب التشارك ولا أحب التفاصيل.

من باب المصداقية الصحفية يذكر الراوي بعد مراجعات وبعد البحث بأن عبلة كانت تشارك موكلي الحماقة ولكن بنسبة أقل. يقول موكلي:

- بدأت أقضي وقتي بانتظارها، أعلم بأني سأكتب التاريخ، أريدها أن تسطره معي، سأعرض عليها أفكاري ومن الممكن أن تتقبل.

يتجاهل التفاصيل عنوةً:

- لقد أثرت إعجابها ولكن... ولكن.

توقف الراوي واعتذر من موكلي واستأذن لدقائق، اختفى خلف شجرة كبيرة لدقائق، ثم عاد وقال:

- وما المشكلة إذا أعجبتها؟ لماذا لكن؟ ولماذا التأكيد؟

- هذا الكلام منذ سنوات؛ فيحتاج بالقدر هذا إلى عمر كامل لوصفه. هل تريد شاي؟

- لا، لا.. الشجرة بعيدة. لا أريد.

- حسنًا أنا أسألك الآن، هل تؤمن بمشروعي؟ تغيير العالم؟ انتشال الإنسانية؟

- أنت تدفع لي مرتبًا لسبب، سأكون صادقًا معك.

- رفع موكلي رأسه بتعجب؛ حسنًا أنت مؤمن إذن؛ ولكن هل تظن أن هذا سيحدث غدًا؟

- أتمنى أن يأخذ الوقت كله. أجاب الراوي. طالما الراتب سيدر علي مبلغًا فأنا أبحث عن مكان للسكن فهل تساعدني في الحصول على ذلك؟

- سأحدث لك شمامة فهو مسؤول الاستراحة.

المهم أتبع بجدية:

- عبلة من عائلة محدودة الدخل، حدثتها عن الزواج الأسبوع الماضي فأجابت لا بد أن أعمل شيئًا، أتغير أو حتى أبدل جلدي.

ضحك الراوي وقال:

- لماذا تبدل جلدك، لقد ذكرت المشروع! اعمل عليه.

أجاب موكلي وهو يرتشف كأس الشاهي ووجهه يكاد أن يصرخ من الحيرة:

- لا أعلم يا رجل، كل شيء حولي يشككني، لم أعد أعرف من أنا.

- كل شيء سيصبح على ما يرام يا رجل، ثق بنفسك فقط ولا تنسَ أن راتبي سيحل بعد أيام.

- نعم، نعم. لم أنسَ.

سكت موكلي مستمتعًا بكل منظر في تلك الصحراء القاحلة.

الأصدقاء، هكذا هي جمالية الحياة. كان موكلي يأخذ قسطًا من الراحة بعد عمل عقلي شاق؛ فاكتشف أنه فيلسوف رائع يملك خصالاً عجيبة لا يملكها أعظم المفكرين في التاريخ. تساءل عن حبيبات الرمل وكيف تجمعت في منطقة واحدة أطلق عليها اسم صحراء. هل الحبيبات تتوالد؟ أم

إنها تتحدث مع بعضها، ولو اختارت هذه الحبيبات كلها مكانًا آخر فهل سيكون هنالك صحراء، فكرة حمقاء من عقلية حمقاء في زمان أغبر محاط بصحراء مميتة. وجد الإرسال طريقه إلى هاتف موكلي المحمول وبعد رنات قليلة رد موكلي على هاتفه ليخبره شمامة بأن لؤي يستضيف أحد أصدقائه ويريد منه الحضور، فأجاب موكلي بأنه سعيدٌ جدًّا لمشاركة أفكاره الجديدة مع وجه جديد.

استأذن موكلي الشجرة البعيدة التي كان يجلس بجوارها، وارتحل هو والراوي، ووعدها بأن يحضر قريبًا، أخذ يحيِّي الشجرة من بعيد إلى أن غابت عن عينيه الجاحظتين، أدار المحرك الذي عصى أمره ولكنه استجاب بعد محاولات إلى نداءات هذا الكائن الأحمق ليصدر صوت نشاز يخبره بانزعاجه من حماقته، قاد سيارته إلى الاستراحة وكله شغف بأن يقابل علوي، الرجل المعلوماتي، رغبة منه بأن يناقش تلك المعلومات، التي لا يعلم عنها أي شيء، مع علوي.

شغَّل المذياع لتستقبل أذناه الكبيرتان ألحان أغنية أم كلثوم الشهيرة «أنت عمري»، وأخذ يردد خلفها ما كانت تغنيه من كلمات جميلة بصوته المزعج، يراوغ بين السيارات، يقول إنه يحب الموسيقى الهادئة، وليته يعلم في يوم من الأيام ما هو صوت الهدوء.

وصل بعد مشوار طويل كاد أن يلقى الكثيرُ مصرعَه ممن كان قدرهم أن يكونوا في طريقه في ذلك الوقت بالتحديد؛ ولكن إرادة الخالق كتبت لهم عمرًا جديدًا مع انعطافاته الانتحارية، ترجل من سيارته وضرب بباب السيارة بقوة فسقط في الشارع، خاف أن يسرق أحد المارة سيارته؛ فقرر أن يأخذ الباب معه، ويدحر جميع الوساوس التي تنخر في فضاء رأسه. دخل الاستراحة راسمًا ابتسامة طويلة جدًّا، بدا في تلك اللحظة عبارة عن ابتسامة وعينين وأنف كبير، وكأنه مقبل على سرور لم يشهده أحد قبله، تبادل موكلي وعلوي التحيات، ولم يستطع الانتظار إلى يوم آخر ليبدأ نقاشه، كأنه كان يعلم بأن اليوم هو آخر أيام حياته ويجب أن ينهي هذا النقاش لأهميته العظمى كونه سيتولد عنه معلومات جديدة كفيلة في عولمة العالم لسنين عامرة. سحقًا يا موكلي، كم أنت كبير. كتب الراوي لتمجيده.

جلس ولف قدميه إحداهما حول الأخرى، ولم تفارق الابتسامة محياه. تناول الشاي وارتشف منه القليل لتمد خلايا دماغه بدعم معنوي للعمل لدقائق معدودة، سأل موكلي علوي:

الأوراق الفارغة، والشخصيات الفارغة. وبطن الراوي الفارغ أيضًا.

- أخبرني ما الذي تدرسه بالضبط، وما ماهية المعلومات وأهميتها؟

كان علوي فخورًا جدًّا بما يعمله فهو كان يخبر الناس بأنه يدرس تقنية المعلومات وأن المعلومات التي ستُنشر في السنوات المقبلة ستكون من خلاله، وأنه يعلم كيف يبحث في شبكة الإنترنت، بالتحديد لا يتذكر كيف، ولكن لو راجع ما درس سيكون بوسعه أن يبحث وبكل سهولة، وأن بوسعه أن يشرح للبقية خطوات هذه العملية الشاقة. قاطع شمامة هذا الحديث الشائق ليخبرهم بأن مباراة كأس العالم سوف تبدأ، ووضح في تلك اللحظة أن مسألة تنظيم كأس العالم في الاستراحة سهلة لولا ضيق مساحة الاستراحة. لم يعر علوي هذه المعلومات أي اهتمام وأخذ يتحدث عن وضعه المالي وكيف أنه لم يجد وظيفة حتى الآن رغم أن محصله العلمي ممتاز جدًّا، حتى أنه لم يحاول أن يبحث عن وظيفة كباقي الكائنات الحية في هذه القرية، فقد كانت فيها نسبة كبيرة من البشر عاطلة؛ ليس البشر فحسب؛ بل كانت الحيوانات أيضًا تشارك هؤلاء البشر البطالة، فربما تجد حمارًا ضالاً يمشي وحيدًا في الشوارع لتضييع بعض الوقت الزائد، أو قطًّا يحاول الهروب من جيش من الأطفال مدعومين ببعض البالغين يحاولون القبض عليه وتعذيبه، وكأنهم إحدى العصابات النازية في الحرب العالمية، الوضع في هذه القرية تعيسٌ جدًّا. كانت رغبة علوي الوظيفية عبارة عن فكرة مخطئة، تبلورت في عقلية غير لائقة للاستخدام البشري ترجمها لسان يسبح في هواء تكاد تنعدم فيه نسبة الأكسجين، لتصل إلى عقول أخرى ربما تتساوى أو تزيد حماقة عن الأولى. يضيف كل منهم مشاركة غير مفيدة لتنتهي بفكرة وهي يجب عليك أن تجلس في بيتك وسوف تأتيك الوظيفة يا صاحبي. مبدأ علوي هذا جعله عاطلاً لسنوات عجاف؛ ما جعل موكلي يعجب بعلوي حد الجنون كونهما يتشاركان الكثير من الأفكار العجيبة.

كان هنالك رجل يقف دائمًا عند باب الاستراحة يراقب الزملاء عن كثب ويسجل الملاحظات وكله شغف بأن يدخلها لولا حجمه الكبير نسبيًّا مع بابها. كان يلقب بالدب، جسده كبير كخيشة مليئة بالرمل فوقها عضو بشري أطلق عليه علماء الأحياء منذ قديم الزمن بما يعرف الآن باسم رأس، كان الدب يملك ذلك العضو بشكل ملفت للأنظار، هو أشبه بالكرة البلاستيكية وفوقها مجموعة شعيرات اجتمعت معًا وأجبرها الدب على أن تتشكل على هيئة تسريحة يدعوها هو بـ "الموهاك". يقال إنه رجل عصري يرتاد المطاعم الفاخرة.

نظر لؤي إلى الباب فاختفى جزء من هذا الكائن إلا إن كتلة كبيرة منه كانت واضحة عبر باب الاستراحة المفتوح دائمًا. الاستراحة الفارغة، والفراغ بين هذه العقول خطر. الباب المفتوح ليس دليلاً على الكرم؛ ولكن فلسفة موكلي الذي يرى بأنه ربما يحدث تخاطر فكري مع إحدى الاستراحات المجاورة وتأتي فكرة وتجد الباب موصدًا. لا أريد أفكاري تهرب بعيدًا عني فأنا أصنع التاريخ هنا.

نظر لؤي باستغراب ثم التفت وقاطع الحديث الدائر من هذه العقول المعطوبة وقال إن أحد أساتذته في الجامعة أخبره اليوم في صف الاقتصاد بأن دولة من دول أوروبا تُدعى بـ «ليختنشتاين» قد تعرّض مواطنوها لأزمة اقتصادية سيئة جدًّا فقرروا تأجير الدولة كاملة مقابل 70 ألف دولار.

قال لؤي لعلوي وهو يضحك:

- ربما تستطيع أنت وموكلي أن تجمع القليل من المال، وبحكم خبرة موكلي السياسية وخبرتك المعلوماتية فمن الممكن أن تصبحا قائدين لهذه الدولة، فمن يعلم ربما لم تجد وظيفة لأن قدرك أراد لك أن تصبح وزيرًا أو رئيسًا أو حتى عضوًا في هذه الاستراحة. بالمناسبة هل تريد المشاركة معنا؟ فنحن فعلاً نحتاج إلى المزيد من الأعضاء، فموعد دفع الإيجار قد اقترب، والأمور المالية صعبة؛ فهل لك أن تشارك يا صاحبي؟

وضع علوي قدمه اليمنى فوق اليسرى، حرك نظارته قليلاً، وكأن أحدهم قد قدم له عرضًا بالانضمام إلى مجلس الشيوخ الأمريكي. قال علوي:

- أنا مقدّر وممتن لكم هذا العرض، ولكن أعطوني وقتًا أفكر.

أدار رأسه إلى التلفاز لمدة خمس ثوانٍ، ثم أعاده وقال:

- قبلت.

في الجهة الأخرى كان دمور يلتفت مع علوي في كل حركة يعملها إلى أن قرر الخروج عن صمته والدخول في النقاش العظيم، كانت مشاركته كالآتي، أدار رأسه إلى لؤي، تحركت شفتاه، نطق وقال:

- نحتاج إلى دخل آخر وإلا سنضطر إلى التفرق وأنا لا أريد الوداع.

سجل دمور خروجه بعد تلك الكلمات وعاد إلى متابعة المباراة مع شمامة وأخذ يدير رأسه كالمروحة مع كل هجمة وهجمة مرتدة، المذهل في هذه القضية كما روى لنا أحد الحضور الذي رغب في عدم ذكر اسمه، يقول أحد المفكرين في تلك القرية استنادًا إلى ما وصله من ملاحظات من مصدر مجهول بأن النقاش في ذلك اليوم كان محتدمًا؛ إلا إن لؤي على غير عادته لم يشارك، كان يطبخ شيئًا في تلك القدر الفارغة الكبيرة، طبخة فاسدة على نار هادئة أيضًا، أكمل المفكر:

السطر والآخر متنفس ولكن هذه الأفكار سامة. إن كمية الأفكار التي تم تناقلها في تلك الغرفة الصغيرة كانت كفيلة بأن تنهي البشرية من الوجود لو خرجت في يوم من الأيام. كانت احتمالية انتحار الكثير من الناس واردة بالقرية لو احتكوا مع ثقافات أخرى.

رفع موكلي رأسه بكل هدوء بمشهد مثير للدهشة، مشهد مشابه جدًّا لمشاهد ال باتشينو في سلسلة أفلام العراب بجودة وكبرياء موكلي. كان شمامة يتوقع بأن موكلي سيأمره بأن يخرج ويقتل الدب، وبأن الدب الذي يظن بأنه مختبئ ولا يراه أحد وهو في الحقيقة لم يكن مختفيًا منه سوى رأسه، أما بقية جسمه فكانت سدًّا منيعًا لمن أراد الدخول إلى هذه الاستراحة؛ فقد أغلق الدب الباب وما حوله. وبعد قتله سيكتشف موكلي بأن الدب هو تاجر المخدرات والعدو اللدود له والذي بالطبع سيصبح تاجر مخدرات آخر، ولكن من طراز فخم ونظرات حادة. ضرب موكلي شمامة بالريموت كونترول على مؤخرة رأسه ليخبره بأنه كان يفكر بصوت عالٍ.

- أنا لست بائع مخدرات والدب المختبئ هناك أمره حتى الآن مجهول. أنا لدي فكرة أكبر، فكرة أعظم، تاريخ سينبئ باسمي.

أدار موكلي رأسه باتجاه دمور وسأله:

- كم تملك من المال يا دمور؟

لم يكن دمور يعير موكلي أي اهتمام؛ بل لم يحضر هذا المشهد نهائيًّا فقد كان مشغولاً بالمباراة.

صرخ لؤي من بعيد:

- هل يريد أحد العشاء، فأنا سأطبخ.

أخذ موكلي الجائع يدلي رأسه للأعلى والأسفل كأنه عامل أجنبي وصل إلى أرض المطار حديثًا لا يعرف عن لغة أهل البلد أي شيء، ويحاول أن يقول لهم نعم، أو بمعنى أصح ومع محاولة مني بأن أشرح الموقف بالشكل الصحيح كمطرقة كبيرة متصلة بعصا خشبية نحيلة تحاول أن تدفع مسمارًا قد تلون بالصدأ. انتبه دمور إلى موكلي ورد:

- عسى ما شر، فيك شيء؟

أعاد موكلي سؤاله:

- نشفتني الصحراء وأكلني الجوع وكأني أرى مشروم أمامي. كم تملك من المال؟

رد دمور بتذمر:

- معي والحمد لله ما يكفيني الرازق بالسماء والحاسد بالأرض، اذهب واعمل واجمع نقودك.

- نحتاج سلطة، ونحتاج تغييرات ليس فقط الاستراحة لكم.

سأل شمامة بتعجب: لمن إذن؟

- لي. ومكان أكبر للعمليات.

عدل موكلي جلسته وانبطح انبطاحته المعهودة وقال:

- يا رجل يجب أن نفعل شيئًا فالوضع تعبان. يا أخي القحط قاتل.

للأسف لم يعلم موكلي بأن عملية كسب النقود تتطلب القليل من الجهد، وأن النقود لا تتكاثر بالانقسام أو التوالد. كان لدى موكلي اعتقاد ربما يكون مخطئًا لكنه أصر على المحاولة وهو أن النقود يمكن زراعتها، فقد حاول في يوم من الأيام أن يأخذ عملات حديدية ويزرعها؛ بل إنه حرص على ريها يوميًّا بالماء ظنًّا منه بأنها في يوم من الأيام ستخرج شجرة يمكنه أن يقطف منها،

والمحزن في الموضوع أن القطع النقدية لم يكن موكلي يملكها أصلاً؛ بل كان يسرقها من شمامة ويعد نفسه بنفسه بأنه في يوم من الأيام سيعيد هذه القطع لشمامة مع الفوائد. قال موكلي لدمور:

- المشروع عظيم وسيجعلك مسؤولاً في يوم من الأيام.

أخذ دمور يحك رأسه بشدة ومن ثم سأل:

- ما هو المشروع؟

سكت موكلي لدقائق معدودة وقال: الفكرة ستأتي مع الباب المفتوح لا تخف عليها، ستأتي قريبًا. بينما كان موكلي يفكر ظهر رأس الدب من جديد من خلال الباب وكان يظن نفسه مختبئًا. توقف موكلي عن الكلام وأخذ ينظر إلى الدب وللمرة الأولى سقطت أعين موكلي على عيني الدب وأخذا يتبادلان النظرات لثوانٍ قبل أن يبدأ جسم الدب بالاهتزاز، ما أشار إلى أنه قد قرر الهروب بعد توقعه بأن موكلي قرر اللحاق به. أخذ موكلي يركض خلف الدب، والغريب في تلك اللحظة أنه رغم كبر جسد الدب إلا إنه كان سريعًا جدًّا، فقد ابتعد جدًّا عن موكلي الذي لم يستطع اللحاق به. وقف لحظات ليستعيد أنفاسه إلى أن اختفى الدب عن ناظريه مما زاد الموقف غموضًا، عاد إلى الاستراحة ليخبرهم بأنه سيذهب إلى النوم، وقبل أن يخرج مع الباب أخبر موكلي علوي بأنه يريد أن يقابله في اليوم التالي. أخذ موكلي باب سيارته واستودع الجميع وتمنى لهم ليلة سعيدة، ركب سيارته وأدار المحرك وأخذ يجوب الطرقات باحثًا عن طريق لمنزله، وعندما وصل وجد رجلاً واقفًا على الرصيف المقابل لبيته. نظر إلى الرجل؛ بارد الوجه صغير الرأس قصير القامة رأسه منسوخ من رأس الدب بتفاصيل الشعر نفسها. خاف من منظر رأس الرجل وتراجع أدراجه. خاف أن يكون ذلك روح الدب قد اختبأ في جسد نحيل؛ ولكن بعد أن عالج بعض الحقائق في رأسه توصل إلى قناعة بأنه لو كان الدب يستطيع أن ينتقل بين الأجساد فليس هذا الجسد الأفضل للانتقال إليه؛ بل حتى لو أن شمامة وكرشه المتدلي قد أُعطي هذا الخيار فلن يوافق عليه وسيرضى بشكله.

بكثير جدًّا من الوصف قال الراوي بل جزم بأنه لو خُير هذا الشخص نفسه بأن ينقل روحه إلى جسد آخر فإن الرجل سيوافق بلا أي تردد. تقدم إلى باب بيته وحاول إخراج مفاتيحه، اقترب الرجل منه وسأله:

- هل أنت موكلي؟

قال موكلي بدهشة:

- نعم ومن أنت؟

قال وأصوات الكلاب تنبح بانقطاع، بعد أن اتخذت الأرض الفارغة أمام منزل موكلي منزلاً. يقول موكلي إنهم ونعم الجيران فلم يشْكُ أحد من أحد قط.

- أنا دندس قد جئت إلى قريتك قبل أسبوع تقريبًا بحثًا عنك دون أن أعثر على أي أثر لك، حمدًا لله أني وجدتك.

سأله موكلي:

- هل أستطيع أن أخدمك؟ ما الذي تريده مني؟

قال دندس:

- هل لي أن أقضي الليلة في منزلك وفي الصباح أحكي لك كل شيء.

رحب موكلي بالضيف وقال له:

- تفضّل.

والراوي ينظر إلى الرجل الغريب من بعيد يدخل بيت موكلي. وهو يعلم بأن أفضل احتمالاته في تلك اللحظة أنه سيشارك الكلاب الأرض.

دخل الضيف وأحضر موكلي فراشًا ورماه على دندس، انبطح موكلي بجوار دندس على سطح المنزل حيث يدعي موكلي بأن هنالك كمية أكبر من الأكسجين تجعل عقله يستحضر خيالاً أكبر وهو نائم. لم يستطع دندس النوم في تلك الليلة بسبب شخير موكلي الأشبه بقطع الأشجار في غابات الأمازون، أجبر تسلل أشعة الشمس موكلي على وقف الموسيقى المزعجة.

لم يزل دندس يتخيل الدمار في تلك الغابة، التفت موكلي لدندس وقال بصوت هادئ:

- صباح الخير يا صاح.

عالمكم هذا، أنت مجرم بحق الطبيعة، كانت الأفكار تدور برأس دندس. قرر بعد ذلك اليوم المشاركة في أسبوع الشجرة سنويًّا، ويقول زملاء له إنه لم يتخلف عن ذلك الأسبوع مهما كانت الظروف، الظروف القاهرة التي صنعت منه هذا الرجل البيئي بعد النوم بجانب موكلي.

خرج موكلي ودندس بسيارة موكلي بعد أن أصر على إكرام ضيفه بالإفطار، ومن بعدها يعلم حاجته وما جيء به إليه، توقف موكلي أمام المدرسة التي يعمل بها شمامة، ترجل موكلي ودندس من السيارة ودندس يلتفت حوله خائفًا. عند الدخول توجه موكلي إلى المقصف المدرسي جلس مع شمامة على طاولة، والطلاب من حولهم يتناولون الإفطار في فسحة مقيتة، أحضر شمامة ما تبقى من الإفطار في المقصف. كان موكلي حريصًا على ألاَّ يدفع ثمن أي شيء مستهلك، معرضًا لانتهاء الصلاحية، فهو يفضل تجميع أمواله للاستثمارات. توقف شمامة عن الأكل وأخذ يمارس تمرينات الإطالة موضحًا بأنه يريد أن يبقي على جسمه الرياضي ولا يخسر لمعانه، سكت موكلي لبضع دقائق ليحرك جسمه بحركة بطيئة وكأنه يعاني من كسور. يقول موكلي إن هذه الحركة تساعده على تذكر السؤال. قال موكلي:

- أخبرني يا أستاذي ما الذي أحضرك إلى هنا وما غرضك، إن كانت المسألة مالية فأتوقع بأن الجولة من منزلي إلى هذا البوفيه الفاخر كفيلة بأن تشرح أوضاعي المالية في هذه الأزمة، هل تعلم يا صاحبي ما أسباب الأزمة الاقتصادية في هذه القرية، أعلم بأنك تبحث عن الإجابة، لدي الإجابة؛ هي الرأسمالية يا أستاذي، هل تعلم بأني اقترضت من شمامة الأسبوع الماضي 50 دينارًا، وللأسف حسب الرجل 4 دنانير فوائد، ويتوعد بأنه لو لم أدفع حقوقه نهاية هذا الأسبوع فسيزيد من الفوائد؛ بل يقول لؤي بحكم دراسته للاقتصاد إن آدم سميث الأسكتلندي بدأ بالفكر الرأسمالي بعد أن تشارك هو واثنان في ديوانية في ادنبرا في أسكتلندا، يقول لؤي إن أصدقاءه كانوا يملكون خيولاً، بينما هو كان يسحب رجليه كل ليلة إلى الديوانية ما جعله يكتب كتابه الشهير «ثروة الأمم».

قاطع دندس موكلي بقوله:

- يا أستاذي دع عنك مغالطة التاريخ، لم أحضر إلى هنا للمال، جئت لأخبرك عن عمك جعفر. هل تتذكر عمك جعفر؟

هز موكلي رأسه بخجل وقال:

- هل جئت لتأخذ المال، هل أخبرتك عن الشيوعية وأثرها على هذا المقصف المدرسي.

تأفف دندس وقال:

- أحد الضيوف التي تكرم أو تهان، يا أخي لم أحضر إلى هنا من أجل مال استلفته من عمك جعفر، عمك جعفر وافته المنية، توفي قبل أسبوع وأخذنا نبحث عن أقاربه ولم نجد أحدًا من أقاربه سواك أنت. لا تخف فعمك جعفر لم يترك هذه الحياة إلا بعد أن سدد ديونه كلها؛ بل الأعجب أن عمك ترك بعض الأموال، عمك جعفر الذي كان يعيش في منزل لا يملك إلا ثلاثة جدران قد ترك هذه الدنيا وهو يملك أموالاً بإمكانها أن تبني جدارًا رابعًا من الذهب.

سكت موكلي والتفكير يأخذ مجراه:

- شمامة بإمكانه بناء هذا الجدار على الطريقة الرومانية بخمسين دينارًا فقط، ومنها أسدد ديني قبل الفوائد.

وقف دندس ومشى إلى الجدار وضرب رأسه بشدة وعاد وقال:

- عمك ترك أموالاً لو رتبتها على بعضها بعملة الدولار لأكملت بناء الحائط بل وفاضت، اتضح أن عمك جعفر اشترك بمساهمة في بلاد العم سام قبل ما يقارب الأربعين عامًا، وتكاثرت هذه الأموال ولم يسأل عنها. فعمك أحد أعمدة الرأسمالية يا صاحبي.

سقط موكلي على الأرض، في تلك اللحظة التاريخية كان شمامة لا يزال يمارس رياضته فهو لا يحب المقاطعة، قاطعه سقوط موكلي، وقف شمامة وقبض على دندس من رقبته وقال:

- ما الذي صنعته بالرجل؟ هل سألته عن أموال؟ أتعلم بأن قلب هذا الرجل مرهف. لا يسمح بأن يسمع كلمة مال، فيميل عقله، ويميل قلبه، ويمل من الوقوف ويُغمى عليه. لقد أجريت عليه شخصيًّا دراسة في الاستراحة استغرقت شهرين.

دفع دندس شمامة وأخذ ينفض ملابسه:

- لم أطلب منه شيئًا يا رجل! أتيت لأخبره بأن عمه جعفر قد أورثه مائة وخمسين مليون دولار، حصيلة عمله هذه السنوات كلها، يا رجل يُقال إن عمه هو من أوجد العملة من الأساس.

رجل بخيل لا يعرف الجار ولا يكرم المار، قد بلّغت أمانتي، قل لموكلي إن كان يريد أن يكمل الإجراءات فليتصل بي.

سقط شمامة الآخر ولكن سقوط شمامة كان أضخم، هل يعقل أن هذا الرجل يملك مائة وخمسين مليون دولار! الأسبوع السابق استلف خمسة دنانير من علوي الضيف الجديد لكي يدعم النادي الموسيقي بالقرية، أخذ شمامة يردد الكلمات ويهلوس إلى أن فقد الوعي. أخذ دندس طفاية الحريق وضرب بها رأس شمامة، فرفع رأسه لا شعوريًّا وسدد لدندس لكمة على طريقة محمد علي كلاي، فسقط أرضًا.

تزورني بين الحين والآخر طيوف نقودي التي استلفها موكلي. أخذ الحماس شمامة وبطريقة مستفزة أخذ يتراقص، وقف دندس وأخذ يركض باتجاه شمامة وحاول تسديد لكمة فتفاداها وأعاد تسديد لكمته القاضية؛ سقط دندس مرة أخرى، ذهب شمامة يطمئن على دندس بروح رياضية ثم حاول أن يوقظ موكلي الذي ما زال غير محتملٍ للصدمة. أصبح موكلي الآن أحد أعمدة الحارة بل القرية أجمع. وقف موكلي وأخذ يصرخ بأعلى صوته.

- أخيرًا سأصبح رئيسًا يا إخوة.

تبسم شمامة وفتح ذراعيه بكل ما أوتي من قوة، وحضر إلى موكلي ليداعبه ويأخذه بالأحضان، فالقضية بالملايين الآن وليست بتنظيم معسكر رياضي. دفع موكلي شمامة ونظر إليه بفوقية:

- هل تعلم من أنا يا هذا؟ أنا موكلي رئيس الدولة الناقلة لهذا العالم في القريب العاجل.

حاول شمامة بالتفكير برد معبر في تلك الفترة، فعقل شمامة يعاني من التجمد في بعض الأحيان أو الأعطال المفاجئة، يقول شمامة في لقاء جانبي إنه يتعامل مع هذا الحالات بلكم أول شخص يقف أمامه. استعد شمامة، رفع رأسه ووجد موكلي لا يزال ينظر بفوقية، ولكن هو الرئيس. توجه شمامة إلى دندس الذي لتوه استعاد وعيه، أودعه ضربة أخرى. يقول شهود عيان إنه اضطر بأن يتواصل مع الإسعاف، لكي يتناول دندس العناية بعد لكمة شمامة التاريخية. عاد شمامة واستعاد قواه العقلية والتفت إلى موكلي وقال: «كل رئيس عظيم يحظى بتاريخ عظيم، نحن تاريخك ونحن

أعوانك، لا تتركني هنا وإلا لكمت صاحب الخبر السعيد مرة أخرى. سعد موكلي جدًّا بهذه الكلمات الحساسة وأدار ظهره وقال: يا شمامة اتبعني إلى المستشفى.

في أروقة المستشفى دار حديث بين موكلي وشمامة، جميع قنوات القرية والصحف كانت موجودة؛ بل إن العمدة كان حاضرًا أيضًا. يقول الراوي إن شمامة وموكلي أضافا نظريات في علم الاقتصاد والفلك. نقاش حاد جدًّا، بل يضيف الراوي إن أحد أصابعه أصيب بقطع. أنهى شمامة الحوار قائلاً:

- ماذا ستفعل الآن يا موكلي، أنت أحد أهم مقومات الاستراحة، وانتعاش اقتصادي يعود بالنفع على جميع الأعضاء.

يقول الراوي إنه رأى شاشة جوال موكلي تنير، حنفي عامل الاستراحة يتصل. أخذ موكلي الجوال من الطاولة ورد وقال:

- أهلاً بان كي مون كيف حالك؟

الراوي في هذه اللحظة ذهب ليبتاع الفلافل.

- هل يريد أحد فطور؟

رفع الممرض يده والآخر ثم الآخر والآخر. أنا لست جائعًا، قال الدكتور.

لم يأكل من ليلة البارحة كما أكد في روايته، بعد دقائق خرج دندس ورأسه ملفوف بالشاش كمومياء مصرية للتو خرجت للقرن الحادي والعشرين، نظر إلى شمامة وهرب إلا إنه اصطدم بالباب المقفل أمامه. عاد دندس إلى غرفة الدكتور، وموكلي ما زال يكلم بان كي مون، انتهى موكلي وهو يعبر عن قلقه من سياسة شمامة، بل قال: ابعث لي الإنتربول للقبض عليه. شمامة على الجانب الآخر يبتسم ويفكك خيوط المؤامرة. ودندس يكاد الراوي أن يتعرف إلى وجهه بعد الحادثة الشنيعة. بعد أن انتهى هذا المشهد الدراماتيكي أغلق موكلي الخط، وهز رأسه لشمامة برسالة مضمونها: اتبعني إلى السيارة، أو نكتفي بوصفها بوسيلة نقل، فمن الظلم أن يُدعى ذلك الجماد سيارة. حمل موكلي الباب الذي وضعه عند باب المستشفى، أخرج مفك براغي من جيبه الأيمن وركب البراغي برغيًّا تلو الآخر. استقل دندس الملفوف بالشاش الحوض الخلفي للسيارة، بينما شمامة وبكل اعتزاز

شارك موكلي قمرة القيادة، أخذ موكلي يقود المركبة بدون وجهة محددة وهو يسرق نظرات مليئة بالغضب من شمامة المشتت كما يتضح على وجهه المستطيل. قطع دندس النظرات المتبادلة وبدايات هذه الحرب الباردة بعد أن أخذ يطرق الزجاج الخلفي بشدة، التفت إليه موكلي ودندس يصرخ:

- أخفض السرعة، أكاد أطير هنا. سنصل على كل حال.

وقف موكلي ورفاقه عند باب الاستراحة، وما زالت آثار الصدمة واضحة على وجهه. خلع الباب وسنده بجانب باب الاستراحة وهمَّ بالدخول يتبعه الثنائي المرح، قبل دخول الاستراحة لمح موكلي جسمًا كبيرًا يتحرك خلف برميل نفاية قريب من الاستراحة، تابع مشيه وكأنه لم يعره أي اهتمام، ولكن الموضوع أخذ حيزًا من تفكيره. في غرفة المعيشة، كان لؤي وعلوي مفترشين الأرض، المشهد أشبه بمخيم لاجئين، قسوة الحياة كانت بجرعات مضاعفة لهما؛ ولكن القساوة بالحالة هذه كانت تتمثل بعقلية موكلي، الذي لم يتردد بتسديد ركلة إلى بطن لؤي لمجرد القليل من المزاح على حد قوله. كاد لؤي أن يفقد بها حياته، أيقظت صرخة لؤي القوية علوي الذي لا يعلم ما الذي يحدث؛ ولكنه اعتقد بأن مصيبة قد حلَّت. تحول من حالة نوم تامة إلى حالة هلع وهروب. لم يتردد موكلي وتبع علوي، كون علوي رجلاً معلوماتيًّا؛ حيث يعتقد أنه موسوعة وأنه يعلم كل شيء. وهنا تكمن المشكلة، يعتقد موكلي بأن البشر يأتون بشكل مجموعات، الكل يختار مجموعته والكل ينتمي إليها. الأفكار لا تأتي بالإيمان أو البحث، أو حتى بالتجربة، الأفكار تُبنى من التيارات؛ لهذا كان موكلي في كل أسبوع يعيد النظر بأفكاره، لا يعيد النظر في جودة الفكرة أو صدْقيتها. موكلي يعتبر نفسه شخصية اجتماعية، الراوي ليس اجتماعيًّا جدًّا. هل النقود ستزيل هذا الصداع؟ يسأل نفسه.

إذا دار نقاش بين موكلي وأي شخص آخر في أي من وسائل التواصل الاجتماعي، وتعرض موكلي «للتحجير» يعيد البحث عن التيارات الأخرى، الجديد بالسوق كما يقال، ويعتنق كل ما جاء به من فكر، ويدافع عنه باستمرار. على أي حال، علوي الهارب من الخطر المجهول، وموكلي الذي يتبعه ليعلم من هو المسؤول، وبشكل مفاجئ وبينما الجميع كانوا يركضون، انزلق جسم كبير جدًّا من خلف شحنة التراب، أشبه بانزلاق لاعب المنتخب الإيطالي السابق «مالديني»، رشاقة وسلاسة لم تكن كأي انزلاق. تعثر علوي وسقط على وجهه ما جعل موكلي يقبض عليه، أخذ ينظر بدهشة

إلى وجه موكلي الذي يثبت يديه. وجه علوي المليء بالألم، والدب الذي يقف خلف موكلي قد منع أي وسيلة للنور تنفذ، حتى نور القمر لم يجد طريقه. سأل علوي موكلي:

- ما الذي يحدث، هل هذا حقيقة أم أنا أحلم.

سحب موكلي علوي من يده، حتى وقف على قدميه، عندما التفت وجد الدب يقف أمامه، فنسي بأن الدب كان صاحب فضل بعملية إيقاف علوي عن الركض النائم، الدب الذي كان يبحث عنه لأشهر يتابع بها موكلي كان ينتظر هذه اللحظة التي ستكون نقطة فصل في قصة موكلي والاستراحة. لم يتردد الدب في مد يده بحثًا عن علاقة مع هذا الرجل العظيم. توقف موكلي للحظات ويد الدب تحوم بالهواء، وسأله بحنكة:

- من أنت؟ ولماذا تراقبني منذ أشهر؟

هذه خطة من علوي لكي نلقي القبض عليك ونستجوبك. اصفر وجه الدب وقال: بالعكس فأنا من المعجبين بك، وأراقبك منذ شهور رغبة مني في الانضمام إليك فمنذ أن سمعت خطبتك الشهيرة «أسعار التبن جابت لي العفن» لما رشحت نفسك للمجلس البلدي قبل تسعة أشهر قبل أن يفوز بها الفراش حمزة، وجدت أن لديك كاريزما مؤثرة في تحريك الجمهور، فلم يكف اسمك عن أن يُذكر يوميًّا في مجلس أبي إلى يومك هذا، أنت جيفارا الاستراحة.

لم يدع موكلي الثوري هذه الكلمات تذهب أدراج الريح، أخرج سيجارة من جيبه وأخذ يلتفت بهدوء عن يمينه ويساره إلى أن وجد شحنة رمل صغيرة بجانبه، أخذ يمشي بهدوء تجاه الشحنة وانبطح كغريق دفعته الأمواج إلى شاطئ الأمان، أشعل سيجارته وقال أخبرني ما الذي تعرفه عني. لم يكن الدب يعرف ما الرد المناسب في هذه الحالة، لقد مرر هذا السيناريو مئات المرات قبل ذلك ولكن هذه اللحظة مختلفة، قاطع موكلي الدب وقال:

- ما رأيك أن تعمل مساعدًا لي، ونشارك في صنع مجد الثورة سويًّا.

سمعت من قبل بالتخاطر الفكري، يقول الراوي، ولكن عندما سقط الدب مغشيًا عليه وكذلك جدار الاستراحة الذي صبر على الحماقة وستر عليها لفترة طويلة علمت بان التخاطر كان يبلغ اقصى حدوده، سقوط جدار الاستراحة كسقوط جدار برلين فهو يعلن بأن انقسام الفكرة لم يعد حلاً.

التفت موكلي برأسه وأبدى استياءه بتمتمات بسيطة. وقف علوي الذي كان يشكو من إصابة، وضرب الدب على وجهه ضربة خفيفة، أفاق الدب من نومه ولا يعلم أحلمًا ما حدث أم حقيقة، التفت الدب خلفه ووجد الجدار قد سقط.

- لا تخف سأصلحه أنا. انتظرت سقوط هذا الجدار منذ شهور ولما قادني الحظ إلى مقابلتك سقط. عمومًا هل عدنا إلى الاستراحة.

رد موكلي:

- نعم، الاستراحة.

عاد الجميع إلى الاستراحة إلا الراوي الذي عاد ليكمل ما تبقى من سيجارة موكلي الذي رماها بعد أن فاض عليه نهر من الثروة. دخل علوي وموكلي إلى الاستراحة وشمامة يصرخ ويعلن النفير وبيده عصا خشبية وهو مختبئ خلف برميل مندي، ذهب موكلي إلى برميل المندي وفتح الغطاء وأدخل رأسه وسأل لؤي:

- البرميل يعمل؟

رد لؤي:

- نعم. ما زال يعمل.

صرخ موكلي على الدب وأمره بالذهاب وإحضار الدجاج فالعشاء مندي، وتوجه إلى الاستراحة. شمامة ما زال يصرخ ويطلب النجدة. قال موكلي بهدوء:

- الآن يجب أن نجد لنا خطة، أنا أملك الآن مائة وخمسين مليون دولار. أنا أغنى رجل في هذه القرية في هذه اللحظة.

كان الجميع يتأملون موكلي وهو يلقي بكلماته الشاعرية والذي كان يعلم الجميع بأنها منعطف بتاريخ هذا الكيان الذي سقط للتو جداره. شمامة الذي كان ينظر إلى النافذة لم يتردد بالسؤال:

- هل ستشتري مكيفًا جديدًا لأني تعبت من المروحة.

- اخرس يا أحمق، أقول لك كل هذا المال وتقول مكيف. لدي خطة أكبر بكثير من هذه الترهات. يا دب اذهب وأحضر الدجاج.

لم يصدق الدب الذي كان يراقب من الخارج انضمامه للاستراحة، همّ بالرحيل إلا إن نداء موكلي أعاده إلى الداخل.

الدب يسأل:

- لقد سمعتك تصرخ باسمي هل تريد شيئًا؟

- تشتت الانتباه، هل تعاني منه؟ أريد بأن تمر على مكتبة لخدمات الطالب وتحضر لي صحيفة كبيرة جدًّا وسبورة. هز الدب رأسه وخرج.

التفت موكلي إلى علوي وسأله:

- ماذا تعرف عن «ليختنشتاين».

نظر علوي وكأن الأمور قد تحولت للتو إلى الاهتمام الدولي بعد أن كان أقصى أحلامه الانضمام إلى هذه الاستراحة.

- أعرف ما قاله لك لؤي ذلك اليوم. هل تريد بحثًا مطولاً؟

هز موكلي رأسه بهدوء. بدأ علوي بالبحث وإذا بديمور يدخل وهو مذهول.

- ما الذي جرى للجدار يا شباب؟ لن أدفع أي شيء من الآن.

بحث ديمور عن زاويته المفضلة ورمى نفسه فيها وأخذ يتجرد من بعض ملابسه بحثًا عن الراحة كما يزعم. دخل شمامة ممسكًا بإبريق شاهي ورفع يده بإشارة سريعة تحيةً للأخ ديمور، فبادله ديمور السلام. انتصب موكلي وسط المجلس وكله شموخ وفخر؛ كيف الحال أتمنى أنكم بخير. الجميع بخير، استأذنهم لدقائق وأخبرهم أنه سيعود ولكن عليه أن يذهب لينقل الأخبار لأحد المعارف، خرج موكلي مع الباب وهمّ بركوب السيارة إلا إن الراوي أوقفه وسأله:

- إلى أين أنت ذاهب؟

رد موكلي وكأن أجوبة كل الأسئلة قد هبطت عليه.

- سأذهب لأخبر عبلة بأن الأمور تغيرت وأن المشروع سيصبح حقيقة، سأكون رئيسًا لجمهورية.

- حسنًا، هل تريد أن آتي معك؟

قاطعه موكلي!

- هل هذه سيجارتي؟

- نعم هذه سيجارتك.

- أعطني ما تبقى منها ولا تغادر، سيطبخ لؤي منديًّا بعد قليل.

بعد ساعة ونصف من هذا اليوم التاريخي كان الراوي ينتظر أمام الباب الذي كان مجرد تعريف، لم تعد الاستراحة قادرة على صد أي هجمات بعد الآن وهذا باعتراف شمامة شخصيًّا.

- الجدار سقط، نريد مساعدات مالية لبناء جدار جديد. الوضع الآن متقشف، ويجب أن نكن حذرين.

- جعلتك تشعر به. قال ديمور وهو يضحك.

لهذا السبب وقف الراوي أمام الباب يبحث عن مكان للسكن وليس جدارًا للبناء. لؤي الآخر يراقب الدجاجات في حفرة المندي وكأنهم سيهربون لو رحل. توقف موكلي وعلامات وجهه قد تغيرت، كل ما فيه قد سقط، طموحه وأحلامه. ترجل من السيارة وهو يتأفف بصوت عالٍ ويمسح على وجهه ويكررها مرة وأخرى، جلس بجانب الراوي وكأنه لا يبحث هذه المرة عن راوٍ لإنجازاته؛ بل عن أذن تسمع له، لعل المشاعر هذه المرة قد فاجأته، لم تعرف نفسها بطريقة مرحبة.

سأل الراوي:

- ما الذي جرى؟ لماذا أنت بائس؟ هل تُوفي أحد.

- لا، لا. للتو عدت من عند عبلة، لقد رحلت وأخبرتها بكل شيء، وحصل! ما الذي حصل؟ أخبرتني بأن أرى دربي بعيدًا وأني لم أعد أناسبها فأنا غني الآن.

قال الراوي بتعجب:

- وبماذا أخبرتها.

صوت لؤي العالي من بعيد: الدجاج جاهز، هيا العشاء سيجهز بعد دقائق. والراوي عصافير بطنه قد غردت والجوع بدأ يعبث بعقله. رد موكلي:

- نعم أخبرتها بأني لا أريد الأموال، الحلم موجود وهي شريكته. ولكنها رفضت وأخبرتني بأنها ستتزوج بعد أشهر.

- لا عليك، لا عليك يا صاحبي، الأمور ستتحسن. هيا بنا لتناول العشاء والصباح رباح.

سكت لدقائق وقال:

- لا، أرجوك أحضر لي القليل بصحن بلاستيكي. سآكل في الخارج.

بعد دقائق أتى الراوي بالعشاء، ركب موكلي السيارة ورحل بعيدًا حتى إنه لم يعر الباب أي اهتمام هذه المرة.

بعد سنة من هذا الحدث، لم يعد موكلي حتى الآن. لا أستطيع نسيان ذاك اليوم كون الدب لم يجعل بالصحن سوى الفراغ، وأنا كنت سأهلك للفراغ، إذا وجدته أرجوك أخبرني أين هو!

الفصل السادس

«نحن في عصر نستطيع فيه التواصل
بشكل أسرع؛ ولكن اختفى بيننا التواصل
كليًّا».

الكاتب

(1)

اليوم العاشر من إبريل 2009 في حديقة كوين في شرق تورنتو. العديد من الكراسي المشغولة في الأغلب اتخذها سريرًا يفترشها، أو بالأصح غرفة نوم يخبئ فيها أغراضه ويخلد إلى نوم يمنّي نفسه بأن غدًا أفضل. يعرف الذين استقروا في هذه الحديقة بعضهم بعضًا فهم يقضون معظم اليوم بلعب الشِّطْرنج؛ بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، وبعد ثورة الخميني استقطبت كندا الكثير من لاعبي الشطرنج من هاتين المنطقتين، الكثيرون يلعبون الشطرنج هنا؛ بل حتى إنها تستقطب لاعبي الشطرنج من جميع المدينة وليس فقط المشردين. قابلت صديقي من الطائرة سامر المصري من القاهرة. سامر صغير الحجم، وقصير القامة، لا يحمل من الشعر في وجهه سوى حاجبيه الكثيفين. لا تزال تورنتو باردة ولكن سامر يريد لعب الشطرنج وأنا أريد أنيسًا في غربتي يعيد تذكيري بمن جئت منهم. وجه سامر لا يعكس على أي حال من الأحوال عمره، فهو يبدو عليه الكبر، يحب لعب الشطرنج والنادي الأهلي، ويعشق البحر الأحمر بجنون، وكأنه أصلُ الحياة. سامر ابن الاثنين وعشرين عامًا وُلد وترعرع في شرم الشيخ، لم تكن طفولته مختلفة جدًّا عن طفولتي فهو الآخر كان يهرب من المدرسة إلى التعليم الذاتي.

هل أحسست بأن هذا العالم لا يتسع لفضولك. كان يدفع حدوده ويعيد تعريف الكثير من الأشياء حوله، يعشق سامر نجيب محفوظ، لم يسبق لي أن قرأت له، ولكن حاول سامر أن ينقل لي هذا الحب. وعدني بأن يحضر لي نسخة قديمة من أولاد حارتنا ورثها عن والده الذي اشتراها كنسخة أولى من القاهرة في نهاية الخمسينيات، لا بد أنها لم تكن حارة اعتيادية. وأنا كذلك لم تشبه حارتي الحارات المجاورة. لم تكن كبيرة جدًّا ولكن الفارق العمري لم يكن كبيرًا أيضًا، جميعنا نتراوح بين فارق عمري خمس سنوات، تسعة أطفال عدد كافٍ للعب أي لعبة بل لاختلاق ألعاب أخرى في بعض الأحيان. بعد تحريم البكيمون الذي حولته إلى تجارة بدأت تدر لي الكثير من

الأموال، تاهت بوصلة الحارة إلى أن اجتمعنا في يوم من الأيام وأعلنّا تأسيس المجلس، نستعرض فيه وجهات نظرنا المتواضعة في أيام الصيف. دستور كامل يحفظ للجميع حقوقه، وكان أغلبنا في تلك الحقبة يملكون ألعابًا إلكترونية ولكننا وجدنا الحرية في الخارج، يبدأ الجميع قبل أذان العصر بالخروج من بيوتهم وكأنهم سناجب وقد أعلن الربيع حضوره. الجميع يريدون الخروج للحياة، الجميع متجهزون أمام نقطة التجمع خلف منزلنا، ومن ثم نقصد المسبح ليتخلل الجميع لمدة ثلاث ساعات، لو أن الإنسان يذوب بالماء لما عاد أحد إلى بيته، كانت هذه العادة سارية سنين عديدة، تختلف من سنة لأخرى ولكن الفعاليات بالعادة محدودة.

وفي يوم من الأيام في أجواء الرياض الساخنة وأنا بالصف الأول متوسط على ما أظن، بعد تدشين الدستور الشفهي كان المقر حاجة لا غنى عنها، اجتمعت مع القليل من أفراد الحارة وقررنا بناء بيت شجرة يحوينا كمقر رئيسٍ، من حسن حظنا كان هناك حديقة بجانب منزلنا، فكانت مكانًا مناسبًا جدًّا للمشروع، بدأ الجميع بالبحث عن أدوات نستطيع استغلالها في بناء المخبأ، وكانت أجراس الحرب العالمية الثانية تطرق الأبواب ونحن في غرب بولندا وجيوش هتلر تتسلل وتعثو في الأرض دمارًا. بعد العثور على بعض الألواح وكيس إسمنت من إحدى الحارات المجاورة التي لم تخلُ المنافسة بيننا وبينهم؛ قرر أعضاء الحارة استعارة بعضها، وفي غسق الليل بدأ الجميع بحمل بعض الألواح والقليل من الإسمنت، وبينما كانت الدفعات تتوالى إلى الحديقة، لفت انتباهنا أحد أفراد الحارات المجاورة الذي كان هو الآخر يريد المشاركة أو الوشاية بالعملية، لم تكن الخيارات كثيرة في تلك اللحظة فقررنا ضمه كمتعاقد، وأوليناه مهام الإسمنت والأساس. حصل الفتى المجهول على لقب مهندس «كت»، كان يمسك كيس الإسمنت ويردد «كت» أي اسكب القليل؛ ولكن بعد تأخر إنهاء المشروع قرر المجلس إنشاء لجنة فساد، التي اكتشفت بأن المهندس كت كان يختلس كميات من الإسمنت ويعمل لدى مشاريع ثانية، لم يكن ليعمل هناك لولا أنه اكتسب خبرة عمل من مشروع الحارة العظيم؛ قررنا الاستغناء عن خدماته، وتسريحه بلا نهاية خدمة. اكتُشف لاحقًا وبعد التحريات أن المهندس كت لم يجد نفسه في أيٍّ من المشاريع التي كان يعمل بها، فالطمع سرق عقله.

- في رأسك غيمة. قلت للمهندس. فهو يحب التنقل والطيران كالطيور.

بعد الانتهاء من المشروع الذي كان إنجازًا معماريًّا كبيرًا، وسابقة بين الحارات الأخرى؛ قررت الجهات العليا التدخل وإزالة المقر وكأننا أعضاء حزب سياسي ندعو إلى إزالة الحكم

والفوضى السياسية. لم تكن لدينا خيارات كثيرة في تلك الحقبة حتى ظهر العضو الجديد في الحارة مركى. كان مركى نحيل الجسم كبير الرأس كحلاوة مصاص بنكهة الكولا، اكتسب لقب مركى نسبة إلى التشابه الكبير بين رأسه و»المركى»، كان يقف بعيدًا ومن شدة الظلام تكاد لا ترى سوى رأس مقبلاً من بعيد ومن ثم يبدأ تدريجيًّا بظهور جسمه، كان مركى يحتضن الكرة بيده، كرة رخيصة تلونت بالأبيض والأسود. إذا جلست عليها تغير شكلها من كروي إلى بيضاوي، لهذا كان مركى حريصًا جدًّا بأن لا ينزلها إلا للعب، وكأنه أم ورضيعها التي لا تستطيع الاستغناء عنه. توقف مركى وعرض علينا مشاركة اللعب بالكرة، لم يكن تكيف مركى صعبًا في الحارة، فاندماجه كان سهلاً جدًّا كونه هو الآخر يحب المغامرة وكرة القدم، أحدث نقلة نوعية في الحارة وكأنه كرويف وبرشلونة، تحول تركيز الحارة من بعد تلك اللحظة إلى الاستثمار الكروي خصوصًا مع مركى في منتصف الملعب، الذي دمج الموسيقى مع الكرة بقدميه وكأنه الموسيقي الياباني ياني وهو يداعب البيانو بأصابعه. تم ضم المهندس كت كلاعب ولكن للأسف لم يلبث طويلاً حتى احترف في حارة ثانية وأنا أجزم بأن في داخله ابن بطوطة؛ ولكن كانت الحارات هي القارات له، ونحن الثقافات والشعوب.

أنظر إلى الناس من حولي يتجولون بالحديقة والأجواء بدأت تبرد وقلت له:

- جميعنا مختلفون ولكن نتشارك الكثير بدون أن نعلم، أنا بصغري كنت أهوى الفن؛ ولكنني لم أجِد سوى رسم السفينة، فقد كان مدرسي لمادة التربية الفنية الأسوأ على الإطلاق، فإذا طلب مني رسم حفل، رسمت حفلاً على سفينة، وإذا طلب منا الاحتفال باليوم الوطني رسمت ناسًا يحتفلون على سفينة. الإبداع موجود ولكن السفينة تتكرر، لهذا اخترت الكتابة، بدأت أكتب قصصًا لأبناء حارتي وبدأ الفن ينبت بداخلي. لا يقدر بعضنا العملية، يريد عملاً جاهزًا، عملاً منتهيًا؛ لهذا أغلب الفنانين لا يلقون شهرتهم إلا بعد مماتهم. الفن يعني الصدق، والمشاركة، والمشاركة تعني الضعف للكثير من الناس.

ضحك سامر وبدأ جسده بالاهتزاز وهو يحك إحدى يديه بالأخرى يبحث عن بعض الدفء، وقال:

لهذا يجب أن تكون حذرًا بكلماتك وإلا التهمك الشعب بملابسك، بعض البشر لا يبحثون عن جودة القصة أو جمال اللوحة أو الرمزيات خلف العمل وعمق الفكرة، يبحثون فقط عن التفاصيل الصغيرة، لا يستطيعون الاستمتاع بالفكرة الأكبر، التفاصيل الصغيرة تمنعهم.

كبيرة يعيش عليها الأمل والأحلام. في تلك الحقبة الزمنية حاولت تعلم الموسيقى التي لم يتردد ابن جيراننا بأن يخبرني بأنها تصيبيك بالفقر. لم أرَ الرابط العجيب في هذه الفكرة؛ ولكن كان لديه أدلة وحجج، ولم تكن الفكرة وليدة عقله للتو، فهو نسخها من مكان ما، استمر برسم السفن، لا تعلم فمن الممكن أن يكون هناك رجل على هذه الكرة الأرضية أو ربما على كوكب آخر يستمتع جدًّا بالسفن وأنت من سيصنع يومه.

ضحكت وقلت:

- لا لا. الفن ليس لي. أنا أعيش بالكتابة.

توقف سامر وقال:

- أظن أنه لا يوجد أي شخص يريد مشاركة اللعب. وبدأ البرد أولى هجماته المباغتة، هل جعت؟ نعم، نعم. ذهبنا لتناول العشاء في مطعم كابل شرق دندس سكوير والكل منا ذهبوا إلى مثواهم.

10/4/2009

الفصل السابع

«هل الزمن يتغير أم نحن مَن يتغير».

الكاتب

(1)

عشرات الأشخاص، البساطة والأنس هو ملاذي في كندا ولكن أنا وحدي هنا. اليوم الحادي عشر من نوفمبر لعام 2012، أجلس وحيدًا في غرفتي، أنتظر رسالة من سارة، أو رسالة أخرى من عبد الرحمن، شعور شخص قد فقد كل شيء، وينتظر عودة كل شيء. الانتظار هنا أصعب بكثير أو كما قال شكسبير: «تكون أو لا تكون». مستلقيًا على سريري والظلام والصمت هما السائدان داخل غرفتي الآن، أعاني من صداع شديد جدًّا، مع كل نبضة بقلبي أحس بها في منتصف رأسي، كثرة التفكير جعلت عقلي يبلغ أجله، أحتاج الآن إلى إعادة تشغيل ذهني، أُبعده عن دائرة الأفكار هذه. نهضت من سريري وأخذت أبحث عن مكتبي، يداي تسبحان بالهواء وأنا أمشي بتثاقل والإضاءة منعدمة في هذا السواد الدامس، لمست الكرسي وأخرجت أعواد الثقاب وأشعلت الشمعة. النور يدخلني في حالة من الظلام، في حالة من السراب، في اللاوعي إن كان بإمكاني التحكم به. الصداع الشديد يجعل التركيز أمرًا مستحيلاً. أمسكت بالقلم وبدأت أكتب لكم الكلمات ولا أعلم ما يحدث حولي فأنا بدأت بالتفكك والتشكيك بكل شيء كما فعل ديكارت في يوم من الأيام. هل أنا حقيقة؟ هل كل هذا حقيقة؟ أنا أفكر يعني أنا حقيقي؛ ولكن هذه الإشارات كلها لا تشير إلى أي شيء من الحقيقة. آه كم اشتقت لتورنتو، أعد الأيام للعودة، وأنا غارق في التفكير. أسمع دقات على باب غرفتي، ابتسمت وقلت: ادخل، دخلت أمي وابتسمت وسألتني كعادتها أحن البشر:

- هل أنت بخير؟

لم أستطع النظر إلى وجهها من النور ولكن كنت أسمع صوتها.

- أحضرت لك أدويتك، تناولها.

- لا. لا أريدها يا أمي، إنها تجعل مني فضاءً، تمحو وجود هذه الأحاسيس كلها، تجعل من الصفر حقيقة، لا أكون سعيدًا أو حزينًا، فرحانًا أو بائسًا، أكون فقط صفرًا، لقد تركتها، أنا لا أشعر جيدًا يا أمي، هل ستعودين إلى مكة؟ وأين أخي محمد ألم يأتِ معك؟

أسأل من تخاف علي أكثر من نفسي، قطعة منها تمشي على أرض الحياة أنا. عظيمة هي الأنثى، عظيمة جدًّا، تتكبد ألم الولادة، والتربية، وحتى وإن كبرنا وهرمنا كمية الحب المتوافرة في قلب الأمهات غير محدودة، لو استخرجنا كمية الحب من قلب أم ثم وزعناه على هذا العالم لكان كفيلاً بأن ينهي النزاعات كلها على هذا الكوكب، بل وعلى كواكب أخرى أيضًا. حب غير مادي، غير مبني على شهوات، حب نفسك فأنا قطعة منها على كل حال، بل الأم تحب أبناءها أكثر من نفسها في بعض الأحيان. إذا أردت قياس مدى تطور شعب من الشعوب انظر إلى دور الأم فيه، هل الأمومة تحترم وتكرم؟ هل ينظر إليها بكل فخر، فهي أهم ما يعيش على هذه الأرض. هي التكاثر، هي الحب، هي العطف، هي الاهتمام، هي منبع كل حنان. عمومًا لا أستطيع أن أرفع رأسي وأنظر إلى أمي وهي تنظر إلي بنظرات عطف وكأني مريض. سألتها: ما الذي يفكر به عقلك يا أمي. قلت بصوت مليء بالخوف:

- الجميع يتحدث عنها.

- من هي يا أمي؟

- لا يهم. لم لا تغادر غرفتك إلا للأكل؟ أين ذهبت يا ولدي، عدت حزينًا حتى إنك لم تخرج اليوم للغداء. هل أنت على ما يرام؟ هل ما زلت تشرب أدويتك في كندا أم تركتها وعادت حالتك؟

- لا يا أمي. أنا بخير.

أخذ الصداع يزداد، بدأ صوت أمي بالتلاشي، سكتت أمي لدقائق وبدأ النور يضعف وأنا أغطي عينيّ بكفيّ يدي، لم تتفوه بأي كلمة. غريبة هي الحياة والأغرب أمي، كيف لها أن تدير لي ظهرها وهي الحياة لي، خرجت وعم الهدوء مجددًا، كل ما في هذه الغرفة ظلام، كل شيء أسود كما أرى حياتي الآن، سرحت بالتفكير، وقطع تفكيري دقات الباب، أخرست الدقات بقول: ادخل، أبي هو من يحترم الخصوصية إلى هذه الدرجة، من الأرجح أنه هو، لم يدخل وطرق مرة أخرى، رفعت صوتي هذه المرة وقلت ادخل، دخل وأشعل الإضاءة معه.

- لا أرجوك، أغلق الأضواء.

- أنا آسف يا بني، لماذا تجلس في هذه الغرفة المظلمة يا ولدي؟ لِمَ لا تخرج وتشاركني القهوة، أنا وأختك؟ تعال يا بُني وشاركنا الحديث.

- أمي قد خرجت للتو، لماذا لا تجلس معكما؟

سكت أبي لدقائق وكأنه يتجرع سكاكين وليست واحدة، أخفض رأسه وقال:

- يا بني تحدثنا في هذا الموضوع قبل شهر، أمك ماتت هي وأخوك محمد، قبل خمس سنين ألا تتذكر، قبل شهر بكيت أنا وأنت هنا بعد ثلاث سنوات على موتهم للمرة الخمسين، أرجوك يا ابني قد مضى الوقت وراحت الأيام، شاركنا وعد لنا كما كنت في السابق؛ الحياة باقية ونحن مجرد عابرين. لا تبكِ يا بني، لا تبكِ وكأنك للتو سمعت، لقد ذهبوا، ليس هناك قوة في هذا العالم قادرة على إعادتهم للحياة مرة أخرى.

قلت والدموع تسيل في كل مكان:

- الجميع يموتون، وأمي، وحتى جعفر عم موكلي.

غضب أبي، لأول مرة أراه بهذا الشكل، توقف وقال:

- ما زلت تصدق هذه الخرافات، أنت من كتبها هي أنت وأنت هي، يا ابني توقف، توقف عن كتابة السواد، عن العيش بالسواد، أخرج لنا النور، اكتب عن الطبيعة وجمالها، ليس هنالك موكلي، فهو في عقلك وأنت من أوجدته، وعن أي خالد تتحدث؟ الأنظمة اختلفت والأمراض زادت، وسبل العلاج كثيرة، ولا أحد يطبقها. منذ ثلاث وأنت لا تغادر غرفتك، العالم تغير، البشر تغيروا، اكتب هذا التغير، التغير جميل، سيشعرك بالحياة، حرر نفسك يا بني إلى متى ستعيش هنا، قالها لك الدكتور آخر مرة. أنت جسديًّا سليم، يجب عليك أن تساعدني لأساعدك على الخروج من هنا.

- نعم لأن الدكتور يعلم كل شيء؛ لأن الكتب علمته كيف أشعر وممّ أشتكي. وكأن علم النفس لم يبدأ قبل أقل من مائة سنة، ويحدثني وكأن كل ما يعلمه مسلمات. ما تراه ليس الحقيقة دائمًا.

قال أبي وهو يحاول، ولا يبدو على وجهه سوى الإحباط:

- هيا تعال معي يا بُني، لو كانت أمك هنا لأخبرتك بنفسها أنها لا تريد أن تراك بهذا الشكل، هيا يا بُني أعطني يدك، اخرج معي.

لم أستطع معالجة المعلومات كلها التي قالها أبي تلك اللحظة، الذكريات تحيط بي، تسافر وتعود. ما الحقيقة؟ أين أنا الآن؟ سكتُّ لدقائق وأنا أدور في ذلك العقل التائه، كل ما فيّ مفقود في هذه اللحظة ما عدا جسدي. كل شيء راح وأنا هنا أبحث عنهم، والمدونة والذكريات كيف، أحتاج إلى أمل، أحتاج إلى بصيص ضوء، ليس ضوؤهم الذي بالخارج، أحتاج إلى ضوء داخلي، ينيرني، يدلني على الطريق، السكة طويلة موحشة وأنا هنا وحيد، لست وحيدًا بل مع أبي الذي ما زالت يده تعوم بالهواء تبحث عني. يحاول أن يخرجني من هنا.

- دعوني وشأني. وهل لو خرجت لساعة ستدعني أعود إلى هنا.

رد أبي وعلامات وجهه تقول إنه نجح بالمهمة:

- نعم أعدك بذلك، لن أعود وأزعجك، فقط تعال اشتقتُ لرؤيتك، والتحدث معك، طبيعيين كما كنا في السابق.

- رأسي يكاد ينفجر من الصداع، النور يزعجني جدًّا.

- تعال معي يا بُني أمسك بيدي، ولدي مسكن سيريحك.

أمسكت يدي أبي، وأنا أتبعه إلى ذلك النور، لا أعلم أي الطرقات سأسلك ولكني اكتفيتُ الآن باتباع أبي، فتح الباب وإذا بكمية كبيرة من الضوء تتسلل إلى الغرفة، تصدم عينيّ اللتين لم تتعودا رؤية هذا النور؛ تثاقلت خطواتي في الدرج، تثاقل كل شيء وحتى جسمي. أخذت أدور برأسي يمينًا ويسارًا لعلي أرى أمي وأكتشف بأن أبي كان يخدعني، وأني كنت على حق، أجلسني أبي بجانبه، استندت إليه ولم أتحدث بشيء، أفكر فقط. بدأ أبي يبحث في حقيبة حاسوبه الشخصي عن مسكن.

كلهم يريدون تعقيد الأمور؛ هذا ما يدور برأسي الآن.

- نهلة، أحضري كأسَ ماء لأخيك.

وضع بيدي الدواء وألحقته بالماء، أسرف في التفكير، يقولون إن العقل هو العضو الوحيد في الإنسان الذي يجعله متميزًا عن الحيوانات، أو ما يمنحه الوعي، والقوة، وها أنا ذا أسرف في استخدام هذا العضو، ولعل غيري لم يستخدمه منذ شهور. لماذا كل هذا اليأس في عالم مليء بالضحك؟ أنظر إلى أبي وهو ممسك بالريموت كونترول ويدير القنوات، وقف أبي عند القناة والتفت إلي ورسم ابتسامة على محياه وقال لي:

- هذا برنامج شبابي هل تريد أن ترى ما يفعل الشباب هذه الأيام، أتذكر عندما كنت صغيرًا كنت تخبرني بأنك تريد أن تصبح من رواد الإعلام عندما تكبر.

ابتسمت وتذكرت عندما كنت صغيرًا، كنت أكتب أقاصيص ولا يتردد أبي أبدًا في قراءتها، كان يعشق القراءة ونتشارك بحب التاريخ. التاريخ الذي يقول بعضنا من ليس له ماضٍ ليس له حاضر، وهو الذي أصبحت أتعارض معه بكل إحساسي الذي أحس به، ولو اكتشفت في يوم جديد إحساسًا جديدًا لم أشعر به سأكره التاريخ ما حييت. ما زلنا نتغنى به، لم يغير في حاضرنا شيئًا، ولن يغير مستقبلنا. أضعنا الحاضر في دوامة التاريخ والأشد والأمر بأن التاريخ يكتبه الرابح، فلو قرأت عن تاريخ أي حضارة، ستراها من زوايا مختلفة من كتب مختلفة من حضارات مختلفة. تفكيرنا مختلف، نحن نحلل الأشياء كما كسبناها، لم نحاول يومًا من الأيام البحث، نكتفي بالفخر بمن كان جدي وما فعل جد جدي.

كان اللقاء التلفزيوني عبارة عن شاب في زهرة شبابه يتحدث عن الإعلام الجديد، وكأن هنالك إعلامًا جديدًا من الأساس؛ ولكنه هو الإعلام نفسه بغلاف جديد، هو فعلاً جديدٌ شكلاً؛، ولكن للأسف المحتوى لم يزل يصارع الموت، يعاني من عدم المصداقية، وتفاهة الطرح. أنا آسف؛ ولكن أظن أني مشتت اليوم ومنزعج جدًّا. بدأ الألم يتلاشى شيئًا فشيئًا، بدأ النقاش بمقدمة نحن جميعنا مختلفون، واختلافنا جميل، إلى أن اختلفوا فعلاً، وزادت حدة الطرح حتى أخذ الكل يأكل لحم الآخر، كمجموعة من الضباع انفردوا بكبش جائع، تائه لم يعد لديه القدرة على التصدي لهم، أستسلم للموت ليس ضعفًا منه؛ ولكن الموت كان حتميًّا فقد التفت حوله الضباع الجياع، لا أعلم عما أتكلم حتى، رفعت رأسي وإذا بفنجان قهوة يمده لي أبي.

- تفضل يا بني، فنجان قهوة كما تحبها، استمتع بصغائر بالحياة فهي ما تزيدك الطاقة لمواجهة أيامها الكبار. تأثير الفراشة الصغيرة هي ما يجعل للحياة طعمًا!

- الأشياء، ماذا عن الكتابات الذي تكتبها.

- المدونات تقصد؟

- نعم!

- أضعها على مكتبي.

أخذت الفنجان، وبلا تردد قال لي أبي.

- مازن ابن الجيران قابلته اليوم في المسجد، وهو يسأل عنك وعن أحوالك.

مازن، آه ذاكرة قديمة، لم أر مازنًا من أيام الثانوية، كان زميلي في الفصل وكان يجلس على بعد ثلاث طاولات عني، وكنا نتبادل أنا وإياه أحدث أخبار التقنية في ذلك الوقت، سمعت أنه التحق بالكلية التقنية، لا أعلم ما الذي حدث معه بعد ذلك.

- آه مازن، كيف حاله، لم أره منذ سنين.

- أكيد لم تره منذ سنين ألا تريد أن تخرج وتقابله، تغير الأجواء وتقابل الناس، ترى العالم ويراك.

انتابني الخوف لحظتها:

- أي عالم تريدني مقابلته يا أبي! لا أستطيع أن أقابله يا أبي فأنا سأحاول العودة إلى كندا، لا وقت لي، لا بد أن أجهز أغراضي وأرتب عفشي، وأنجز الكثير من الأعمال، سأقابله في إجازتي المقبلة بإذن الله.

بدأ أبي بالتأفف:

- عن أي كندا تتحدث يا بُني، حاول أن تتكيف على أقل تعبير، وسنتحدث عن كندا في الوقت المناسب، وإن كنت تريد رضاي اخرج وقابله فهو ولد طيب من عائلة طيبة، وصديق قديم لعل القديم منك يعود.

أخذ يتمتم أبي. لا أحب التمتمة، والحديث المسموع للنفس، بإمكانك الاحتفاظ به في صدرك أو أسمعني ما تقول. لم أتجرأ أن أقول هذه الكلمات فاكتفيت بمحادثة نفسي بدون أن أحرك شفتي:

- حسنًا يا أبي سأقابله.

ابتهج أبي وكأني أخبرته بأني أول من هبط على القمر في عام ألف وتسعمائة وتسعة وستين، وكأني من نفخ الهواء على العلم ليتحرك، نعم بعض نظريات المؤامرة تعيش هنا معي.

- خذ هذا الجوال لا أحتاج إليه. راسله واتفق معه.

- حسنًا يا أبي حسنًا.

11/11/2012

(2)

لا يزال عبد الرحمن مفقودًا، ولم تفدني المدونة في إيجاده، بدأت شكوكي بأنه مات تتشكل أمامي كحقيقة. أخاف الموت كسائر البشر رغم أنه نهاية حتمية لكل كائن حي؛ ولكني أخافه ليس لأنه النهاية؛ بل أخافه خشية من إحساس من حولي، من الإحساس الذي أملكه الآن من فقدان رجل لم أعرفه سوى لفترة بسيطة ولا أتذكر ملامح وجهه. الموت هو من يجعلنا نعيد التفكير، ونذكر المحاسن، ونمجد ناسًا كانوا بالأمس بيننا أعداءً. في غرفتي الآمنة، لم يصلها الموت؛ بل نقول إلى الآن، من يعلم غدًا أو بعد ثوان ما سيحدث سوى الخالق. أمسكت بالهاتف، لا أحب الهواتف ولكن أظن بأنها أصبحت مسألة ضرورية، وأرسلت رسالة إلى مازن: «أهلاً مازن، أنا خالد زميلك بالثانوية العامة، أتمنى أنك ما زلت تذكرني، هل تجد لي عندك وقتَ فراغ نتقابل فيه، وشكرًا».

بعد مضي دقائق تلقيت رسالة الرد من مازن كأنها أشبه بعتاب: «أهلاً يا صديقي، جميل أنك ما زلت على قيد الحياة، ألقاك غدًا بعد صلاة العصر».

أغلقت المصباح، وذهبت إلى النوم، ولعل الصباح رباح.

11/11/2012

الفصل الثامن

«أزمة وأزمات، لحظة حياة، ولحظات موات».

الكاتب

(1)

لست كالبقية ينتظرون الصباح بآمال فارغة، يسامرون الليل بأمر القلق أو الحبيب المنتظر، أنا من هواة النوم، أما الآمال الفارغة فنتشارك بها جميعًا، فلا أمل بالقلق ولا الحبيب المنتظر ولا كثرة النوم. صباح آخر وموعد آخر، اليوم سأقابل مازنًا، صديق الطفولة. طلب مني أبي استضافته في مجلسنا، لا أفهم لماذا ولكن من الأفضل تجنب السؤال. لم يتوقف أبي عن الحديث عن باب خشبي اشتراه قبل أسبوع، لا أعلم هل لسعره الباهظ! أم للجهد المصاحب لتركيب الباب! ولكنه أشبع الموضوع طرحًا. انتهيت من الإفطار، ولم أصدق اللحظة التي انتهيت فيها، الجميع يتحدث في وقت واحد، لا أستطيع التركيز ولكن الأكل لذيذ جدًّا، حملت أقدامي إلى غرفتي، الدقائق تمر شهورًا هنا، الأفضل أن أسلب دقائق للنوم قبل حضور مازن الليلة. لم يتركني القلق، طُرق الباب بهدوء، أحس أني أسرفت في النوم، رفعت صوتي.

- مَن؟

- أنا أبوك، بعد ما خرجت من المسجد وجدت مازنًا وقال لي إنك على موعد معه. لقد أدخلته المجلس، سأجلس معه حتى تجهز نفسك.

التعقيد البسيط، هو أن أوافق على الذهاب إلى المستشفى وأنا ببساطة لا أريد حتى أن أفكر به. لم تكن الدقائق شهورًا بل كانت ساعات، لا أريد أن أتأخر على رجل لم أرَه منذ ما يقارب عشر سنوات. تجهزت بسرعة ونزلت إلى مازن، لا أستطيع أن أنكر بأن الدهشة كانت تملؤني؛ ولكنه كان شعورًا غريبًا جدًّا. وكأني لم أقابل أحدًا منذ عقود، دخلت على أبي ومازن.

- مرحبًا مازن.

أكاد لا أعرفه، لقد كبر، لحيته كثيفة جدًّا، وجهه الدائري ما زال بتشكيله، يبدو غريبًا جدًّا علي، لو قابلته في الشارع لم أكن سأعرفه. سنون مضت، لم أستطع أن أتفادى طاقيته الكبيرة التي تخفي رأسه الكبير.

- مرحبًا، مرحبًا.

أخذت أسأل مازنًا عن أحواله، وإلى أين أخذته الحياة، أم اختار طريقه بنفسه:

- مازن ماذا حدث لك بعد الثانوية العامة؟ هل التحقت بكلية تقنية كما كنت ترغب؟

- الحمد لله التحقت بجامعة الملك سعود، تخصص حاسب، تخرجت منذ سنتين، عملت لفترة في شركة اتصالات محلية، وقررت أنا وأخي أن نبدأ مشروعنا الخاص.

رددت عليه وأنا كلي فضول:

- جميل جدًّا، ما المشروع إذا لم تمانع السؤال؟ أتمنى أن أكون أحد زبائنك.

ضحك وقال:

- دعك مني ومن المشروع لدينا الكثير من الوقت لنتحدث عنه. أخبرني كيف حالك؟

- أنا بخير، ولله الحمد. أرتب أغراضي إلى رحلتي القادمة إلى كندا، لم يعد لديّ سوى سنتين سهلتين بإذن الله.

- كندا ما الذي تتحدث عنه، ألم تعد منذ سنوات؟

توقفت لدقائق وسألته بتعجب؟

- سنوات ما الذي تتحدث عنه؟ أنتظر أن يعود أخي محمد وأمي أسلم عليهم قبل أن أرحل.

سكت مازن وبدأ يهمس لنفسه:

لا حول ولا قوة إلا بالله.

قفز أبي مفزوعًا وهمس لمازن:

- تقول ما تريد بالخارج.

ثم رفع صوته وقال.

- الباب الخشبي. ألم أقل لك يا مازن اشتريت بابًا خشبيًّا من نجار فنان، كل ما فيه من زخارف هو نقش يدوي عثماني، باهظ جدًّا.

إذًا سعر الباب هو الذي دفع أبي للحديث عن الباب كثيرًا. أحيانًا تأخذني المخيلة، أنظر إلى وجه أبي وأتأمله، لقد عاش حياة بأكملها قبل أن ينجبني، من كان وكيف كان يفكر؟ هل حدث تغير في حياته؟ يحدثني أبي بعض الأحيان عن قصصه وبطولاته، هو الآخر لم تكن حياته سهلة؛ بل كانت صعبة كثيرًا! ولكنه عزل هذه الصعوبة كلها عنا، وأنا سأعزل أطفالي في يوم ما عن هذا الزخم كله، إذا خرجت منه. هل ولد مرة أخرى عندما ولدت أنا أم كنت ضيفًا عزيزًا أصبح يحبني مع مرور الأيام، أم كنت أملاً، ضحى من أجله حياته كلها. أتفق مع الأخيرة بشدة، أتمنى ألا أكون قد خذلته.

- جميل جدًّا يا مازن أنا سعيد كونك وجدت ما تبحث عنه، ما زلت لا أعلم ما أبحث عنه، نعم عبد الرحمن، هل تعلم أين عبد الرحمن؟ أرغب أن أحدثه في موضوع.

- عبد الرحمن صالح؟ أم من؟

- عبد الرحمن صديقي في كندا.

- لا. لا أعلم أين أو من عبد الرحمن، أنت الوحيد الذي أعرفه، لم أقابلك منذ تخرجنا ألا تتذكر؟

- آه، فعلاً نسيت. فعلاً مضى وقت طويل تغيرت كثيرًا، أتعلم ما الذي أشتهيه الآن؟ فلافل مشكل، أتذكر بالثانوية بعد الاختبارات، أشعر كأنها بالأمس، الشتاء البارد، ومذاكرة أخيرة قبل أن تفتح المدرسة أبوابها. والفلافل دائمًا موجودة، أيام جميلة، تعجبني البراءة.

أنا سأذهب لدقائق وأعود، خذ راحتك يا عم طارق.

- تفضل خالد ما الذي كنت تقوله؟

- فلافل هل تريد أن نذهب لنحضر الفلافل.

- لا، دعها إلى وقت لاحق، كنت أتذكر فقط، رؤيتك فتحت صناديق الذاكرة. أتذكر البراءة يا رجل، ما الذي حدث لناصر؟ ألا تعلم عنه أي شيء؟

- حسب ما أعلم بأنه ذهب إلى أمريكا للدراسة بعدك بسنة تقريبًا، ولم يكمل، عاد قبل أن تعود أنت بسنة، هو موظف الآن في شركة، مسؤول موارد بشرية.

أتفهم وأقول ما يخطر على بالي. تراودني هذه الأيام فكرة العودة والعيش هنا، الغربة ليست حياة سهلة.

- هل تستطيع أن تتواصل معه إذا كان لديهم وظائف شاغرة؟

- أكيد، سأبحث عن رقمه وأكلمه. واحد من أقاربه معنا بالاستراحة أكلمه لك؟

- لن أنتظر بضعة أيام، أريد أن أجد عبد الرحمن، وأبلغه أن يبعث أغراضي، جميل، أنا بالانتظار إذن.

- العفوية والبراءة اللتان كنا نتحدث عنهما تجعلانك تفكر، التجارب تغير المنظور ولا تغير البيئة.

- لا أفهمك ما الذي تقصده.

قلت وأنا أحاول أن أغمس نفسي بفكرة ضبابية كبيرة كوضوح شوارع لندن في شتاء بارد.

- أقصد لو عدنا أنا وأنت الآن وناصر وعبد الله وانتظرنا الاختبار غدًا، وخرجنا إلى الفلافل لن تكون كما كانت، السنوات التي فرقتنا جعلت لكل منا منظورًا مختلفًا، حتى لو توافرت البيئة المشابهة، سنراها بشكل مختلف.

- لا أتفق مع كلامك، أنظر إليها من زاوية أخرى، التجارب غيرتنا كأشخاص صنعت بيئة جديدة، فلو أعدنا الموقف نفسه، الأشخاص يصبحون مختلفين، والتفاعل سيكون مختلفًا، والبيئة هي الأخرى ستتغير، ليس هنالك طريقة للعيش في الماضي؛ ولكن التغيير في بعض الأحيان يكون للأفضل.

- لم أفهمك؟

رد مازن بكل حماس:

- جسمك سيهرم في كلتا الحالتين، لماذا لا تعيش للمستقبل، تحد نفسك، من الممكن أن الماسة ترغب في اللمعان وتنتظر الأضواء فقط، هذا هو الوقت وإن لم تكن راضيًا عن أي شيء حاول تغييره، إذا ما نجحت تذكر أن عندك يومًا آخر لتصحيح المسار، ولديك أيضًا أهل وأصدقاء تهمهم ويهمونك.

- حتى الوالدة تريدني أن أرجع، الوالدة تريدني أن أعود.

- تعود إلى أين؟

- أترك البعثة والغربة.

- رحمها الله وغفر لها، هنا أكثر راحة أنصحك بالبقاء.

- أريد وتتفهم وكلٌ حياة تعود بحياة أخرى.

لقد وصلت الفلافل، دخل أبي وفي يديه كيسان أبيضان كبيران.

- لماذا هذه الكلفة كلها يا عم، ليس لها داعٍ.

- لم تكلف سوى البسيط ولا شيء، كلها فلافل.

قلت وأنا أشتكي الجوع:

- جاءت في وقتها، كأذان المغرب في يوم طويل برمضان.

- إيه يا عم، خالد ذكر لي بأنه لا يريد البعثة ويريد الاستقرار هنا، يقول الوالدة تريده أن يرجع.

- صحيح الكلام هذا يا خالد.

- إيه والله ما زالت فكرة؛ ولكن أريد أن أرتب أفكاري في البداية.

- فرصة سعيدة يا مازن أراك في وقت لاحق، لقد أضرم النور نارًا في رأسي، أشعر أن هنالك أصواتًا كثيرة وصداعًا قويًّا، سأرحل إلى غرفتي لأستريح قليلاً.

- فرصة سعيدة خالد، ابعث لي رسالة لو أردت أن نخرج أو نتقابل.

- حسنًا، حسنًا.

الكل يتصرف بشكل غريب اليوم. أجزم بأن أبي لم ير مازنًا منذ فترة طويلة؛ ولكني أراه ينظر إليه طَوال الجلسة ويرسل إليه إشارات لم أفهمها. لم أستطع أن أترك فضولي جائعًا، تركت نصف الفلافل، لم أشبع جوعي لأشبع فضولي، عندما خرجت وقفت أمام الباب، سمعت أبي يشكر مازنًا؛ شكرًا أتعبتك معنا يا ولدي، لكن أنت تعرف حالته تتحسن منذ شهر من الآن منذ أن بدأ يخرج من غرفته. من الجيد أنه تعرف إليك. يا عم بدا لي وكأنه طبيعي جدًّا، الغريب فقط لما ذكر أنه يبحث عن عبد الرحمن، لم أستطع التركيز أكثر. فقررت ترك المحادثة والذهاب إلى النوم.

11/11/2012

(2)

كائن له حق التعبير. أكمل الفراغ، أحب التدوين، ولكن لا أحب مشاركتها، أحيانًا الاعتماد الكلي ينتج عنه أضرار وخيمة، لا أعتمد على الذاكرة كليًّا، المدونة تعينني في بعض الأحيان على استرجاع الذكريات، استرجاع اللحظات، أو المشاعر. الذاكرة هي الشعور، وليست مجرد استرجاع موقف معين، فلحظة رؤيتي لسارة للمرة الأولى كانت عندما كنت أشرب قهوتي من تيم هورتنز والكرواسون بالجبنة البيضاء، لم يكن مرورها أبدًا عاديًّا. كنت أعاني منذ الصغر من عدم التركيز، أو بما يسمى تشتت الانتباه، منذ الطفولة أحاول أن أشبه البقية؛ ولكني لم أنجح. التركيز الذي أغلبكم يملكونه منذ الولادة تعرفت إليه في تلك اللحظة، أبطأ لحظة في حياتي. حان وقت النوم، التدوين يستطيع الانتظار إلى الغد.

11/11/2012

الفصل التاسع

«الحقيقة جميلة، والجمال يتغير بالتعريف».

الكاتب

(1)

الاختيار، لقد تركت القليل لي هنا وأخذتني معك. يوم جديد، محاولة جديدة عليّ، أحاول أن أكتب في المدونة، أحتاج إلى أخي عبد العزيز؛ ولكن للأسف في الأيام الأخيرة أسعار خدمات عبد العزيز أصبحت تتزايد، بالأمس طلب مني مفتاح السيارة لمدة يوم كامل، لا أعلم آخر مرة استخدمتها. تخصص مازن تقني من الممكن أن أراسله ويساعدني على التدوين، وأسأله أيضًا عن سارة، من الممكن أنه يعلم أين ذهبت أو أين انتهى بها المصير. بعد دقائق من سرحاني الفكري. قاطع سلسلة أفكاري صوت الباب:

- من؟

وإذا بالنور يجتاح الغرفة، كل الظلام تحول إلى نور، وإذا بأخي عبد العزيز ينظر إليّ بكل سرور.

- الفطور جاهز، وأريد أن أذهب إلى حضور مباراة أنا واثنان من أصحابي، أردت استعارة المفتاح.

- دعني أغسل وجهي، سأنزل حالاً.

- هل ستنزل أم نتحدث هنا.

- لا. سأنزل.

بعد بضع دقائق وما أن أصدر حذائي صوتًا على الدرج حتى صاح أبي:

- صباح الخير خالد، تعالَ افطر.

- أهلاً، صباح النور.

عندما رأيته على طاولة دائرية هو وأخي عبد العزيز؛ رسمت ابتسامة بسيطة وجلست على الكرسي بجانبه، الطاولة بالعادة تكون ممتلئة، أمي وأخي محمد مسافران إلى مكة للعمرة، أخي محمد طلب يد ابنة خالي وليد، أمي لم تصدق الأمر وكأن جميع أحلامها تتحقق، لم تتحقق إلى الآن فهي دائمًا تقول: لن يرتاح لي بال حتى أراكم جميعًا في بيتكم وحولكم أبناؤكم. ولكن بعيدًا عن الزواج الذي هو بحد ذاته تنازل، هل الأبناء لا يحتاجون إلى تربية؟ أليست أنانية أن أتكاثر وأنجب أبناء لأدعم وجودي بأهمية؟ ولو كنتِ ترين عكس ذلك يا أمي، قلبك كبير جدًّا. يزورني من وقت لآخر، محمد وأمي ولكن لا أراهما هنا. بالعادة تكون الزيارات في غرفتي، تأتيني أمي من وقت لآخر لتقنعني أن أتناول الدواء، سيعودان الأسبوع المقبل، يحاول أخي كسر الهدوء:

- كيف حالك اليوم يا خالد. هل ترغب بأكل البيض أم ستكتفي بتحريكه بعينك؟

- لا. هو لك إن رغبته.

الكثير مني هنا، أفكار وأما الحديث فلا أريده.

قال أبي:

- أتى أخوك عبد العزيز بنجار اليوم للباب، الباب يحتاج إلى تقصير من تحت؛ إذا فتحته بالكامل يعلق بالأرض.

- اخلعه أو استبدله تشبعنا من هذا الباب، أصله وفصله وتركيبه.

انتقل جميع الدم في جسم أبي إلى وجهه، احمر جدًّا، كان كشمس في لحظة غروب:

- آسف اهدأ قليلاً. مركز أنت ما شاء الله بالموضوع.

همس أخي للوالد:

- أما قلت لك يا أبي.

انتهى الحوار هنا. لا أعلم ما السبب ولكن لم أكن جزءًا من تلك المحادثة.

- هل كل شيء بخير؟

- نعم يا بُني كل شيء بخير.

- هل كلمك مازن أو تواصلت معه.

- لا. لم أتواصل معه، قبل أن ينصرف أمس تواعدت أنا وهو وأنت سنخرج غدًا لقضاء حاجة سريعة، يريد مازن أن يحدثك أيضًا عن مشروعه الجديد.

- سأفكر وأبلغك الليلة، أنتظر رسالة من صديق.

- رسالة من صديق ها؟ هل تحتاج إلى مساعدة؟ نعم هذه المرة فقط. أنا شبعت أبلغ مازنًا أني سأراه بالغد، سأذهب إلى الغرفة لكتابة الرسالة. لا تتأخر يا عبد العزيز.

كانت الطاولة تفتقد أختي نهلة أيضًا، نهلة بمثابة الأم لدي، الأخت الكبرى. الأمومة صفة غير مكتسبة، تتميز بها كل الإناث؛ الاهتمام، العطف، الحب، التشجيع. لا تحتاج إلى الإنجاب لكي تكوني أمًّا، فالأمومة فطرة أنثوية أكبر بكثير من مجرد ولادة. أختي نهلة الكبرى بالترتيب، تزوجت من فترة طويلة، لا أذكر بالتحديد ولكن في أول أيامي بكندا، كانت علاقتنا منذ الصغر علاقة صداقة، وكانت أختي الكبيرة في بعض الأحيان، وأمًّا لي في أحايين أخرى. تعيش في بيت زوجها ولديها طفل وحيد، تقضي نهاية كل أسبوع هنا، تبث الحياة في البيت فمن بعد سفر أمي وأخي محمد، البيت أشبه بمقبرة قديمة امتلأت بالجثث ولم يعد يزورها سوى الأحياء.

حتى الدكتور يعيش في الخارج، وإلا كنا ثلاجة أموات. ظلام وأجواء بارده.

بعد دقائق طرق عبد العزيز الباب وفتحه، ها عندك، وضعتها تحت بابك قبل مدة.

ترى سألني أبي عن الرسالة وأبلغته أنك تقصد تدوينها وكذا، عجبته الفكرة يقول جيد إنك تكتب مرة ثانية، خلاص ستكون جاهزة اليوم.

11/11/2012

(2)

لم أختر الكتابة. هي التي اختارتني، لم أكن أعيرها أي اهتمام؛ ولكن الظروف أبت إلا أن تجعلها متنفسًا لي بين حين وآخر، وإدمانًا لا أستطيع التخلص منه في بعض الأحيان، الجميع يعاملونني بغرابة منذ عودتي؛ لهذا لم أعد أستمتع بالجلوس معهم. ألجأ إلى الأوراق، لا أريد أحكامًا أريد أذنًا صاغية، لا أحتاج إلى ردود لا أحتاج إلى تفاعل، أريد فقط أن أعبر عما بداخلي، أتذكر عندما كنت في الخامس ابتدائي أخذني أبي في يوم من الأيام ليبتاع بعض اللوازم للبيت، كانت تلك الرحلات بمثابة الحلم بالنسبة لي، فإذا استطعت أن أخرج مع أبي وحدنا أستطيع أن أسأل كل ما يخطر ببالي من تساؤلات أو حتى محاولاتي البريئة بالاحتيال. عندما أضع إحدى الألعاب بالسلة وهو لا يعلم، ويتفاجأ عند المحاسب. كان ذلك اليوم بالتحديد مختلفًا، ركبت مع أبي بالسيارة، وبدأنا بجولة الأسئلة، لما توقف أبي أمام السوبر ماركت، ترجلت أنا وهو إلى الباب، في لحظة دخولي رفعت رأسي وإذا بأول إعجاب لي بالحياة، تغيرت نظرتي إلى الأنثى في تلك اللحظة، أجمل ما رأت عيناي، مختلفة كليًّا عما رأيت من قبل. العين تعتاد على ما تراه في الغالب؛ ولكن لم يسبق لي أن أرى شعرًا أشقر، أو عيونًا زُرقًا، أعجبت بها جدًّا، تجاربي محدودة لصغر السن، وتظل محدودة حتى في عمري هذا؛ ولكن جمال آخر ليس الجمال الذي أراه. رأيت الاختلاف، هنا بداخلي أحضره التأمل. أعجبت بها إعجابًا بريئًا. إعجابًا لثوانٍ، لم أكن أعلم ما الذي كنت أشعر به، عندما مرت من أمامي، ابتسمت ابتسامة كبيرة لاشعوريًّا، لاحظ أبي الابتسامة ومن لا يلاحظها، وأنا لم أعتد على الابتسامة.

قال أبي:

- ما لك تبتسم.

- لا شيء ولكن الفتاة التي مرت جميلة.

ضحك وقال:

- الله يزوجك واحدة مثلها.

ابتسمت ومشيت. أنهينا التسوق وخرجنا، بغير عادتي لم أحاول الاحتيال، والتزمت الصمت عندما ركبت، لم تكن هناك فقرة للأسئلة. لزمت الهدوء وأسندت رأسي إلى النافذة أنظر إلى السيارات بسكون، قضيت ذلك اليوم كله أفكر بما يجب علي فعله لأتزوج بواحدة شبيهة بها، شاشة الدراما العربية جعلت من ذاك الطفل تائهًا عاطفيًّا، يرى الحب حياة. كانت أختي نهلة تعاني من الإدمان بالتعاطي العاطفي من مسلسلات رخيصة تسرف في تقديم المشاعر، في ذلك الوقت لم أملك أي خيار آخر سوى الجلوس بجانبها، على كل حال، ذهبت إلى النوم في ذلك اليوم، وعندما استيقظت بالغد، كأي يوم آخر، يبدأ اليوم بصرخات أمي تدعونا للاستيقاظ، بعدها بدقائق تبدأ الحملة الأخرى برفع مستوى صوت التلفاز، وتأخير الوقت ساعة عن المعتاد. توقيت أمي يختلف في الصباح، حتى لو أرادت أن تخبرك الحقيقة لا تستطيع، في صغري كنت أبحث عن أي فرصة لتفادي الذهاب إلى المدرسة، بدأ إخواني يتوافدون من غرفهم إلا أنا فما زلت صامدًا في الفراش، لم أنم تلك الليلة كلها من التفكير، حاولت تلك الليلة وبعد محاولات جاهدة بالنوم أن أكتب قصيدة صغيرة، لم أراعِ فيها قافية ولا وزنًا ولا حتى اختيار الكلمات، ولكن ما كتبته ساعدني على فهم ما الذي كنت أشعر به، فطرتي البشرية، إعجابي بالجنس الآخر، من الممكن أن أكون رب أسرة في يوم من الأيام سأكون كوالدي بالطبع.

دخلت أمي المرحلة الثالثة وهي ترشق الماء، المرحلة الثالثة اختيارية، يحددها مزاج أمي في ذلك الصباح، صحوت وأنا أتذمر، أكلت فطوري على عجل لكي يوصلني أبي في دربه، وعند وصولي إلى الفصل لم أكن شخصًا اجتماعيًّا في سنواتي الأولى، ولا أملك الكثير من الأصدقاء، أكتفي بالحديث إلى من يجلس بجواري، والمقعد فارغ، كل يوم طالب آخر. المتأخرون بالعادة يجلسون بجواري، في ذلك اليوم بعد دخولي عندما جلست على الكرسي بدأت بإخراج لوازمي من الحقيبة.

أبي ليكشف الكاتب قرر بالأمس محاكمتي ولم أعرض عليه ما كتبت. وإذا بسعد ناصر، ابن المرشد الطلابي يجلس بجانبي، لم يكن ألطف الطلاب في فصلي ولكن بالطبع لم يكن أسوأهم أيضًا، فكان هناك محمد فهد، لو كان التنمر مجالاً وظيفيًّا لكان أحد رواده، كان سمينًا جدًّا، ككيس بلاستيكي ممتلئ بالماء، والأعجب بأنه رغم كبر وزنه كان سريعًا جدًّا، لولا التنمر لجزمت بأنه كان قادرًا على صناعة تاريخ في كرة القدم الأمريكية ويبرز كأحد نجومها؛ لأنه وهو في الصف السادس ابتدائي كان يهوى الصدام، صدام الطلاب الآخرين، الصدام في أثناء لعب الكرة؛ بل حتى إنه في يوم من الأيام سرق سيارة أبيه وصدم سيارة أحد المدرسين في أثناء فترة الاختبارات. عمومًا، لا أعلم لماذا ولكني اليوم مشتت الذهن، أشعر بأن الذاكرة جميعها قد استيقظت، وأيقظتني معها.

لسبب ما وفي أثناء فترة حصة فراغ، قررت مشاركة سعد القصيدة التي كتبتها؛ لعله يشعر بما شعرت به، يفهم ما كنت أحاول وصفه أو حتى فهمه، فتح الورقة وبدأ بالضحك تلقائيًّا؛ تنبأت بعدما بدأت ترتسم الابتسامة على وجهه بأني ربما أسأت الحكم عليه، حاولت أن أمد يدي لألتقطها منه؛ ولكنه سبقني وهرب، بدأ يضحك ويصرخ والفصل جميعهم حوله، بدأ يقرأ بصوت عالٍ، فوضعت رأسي على يدي لاشعوريًّا وكأني إذا لم أرهم لن يروني، بمجرد أن أغمض عينيّ سيختفي هذا كله، التفت الجميع وبدأت التعليقات تتهافت وأنا ما زلت أحاول أن أهرب في مخيلتي. وفي أثناء ما كنت أظن بأنه لن يكون هناك أسوأ مما حصل بدأ صوت محمد فهد يرتفع وكانت مادة دسمة بانتظاره، عندما استيقظ محمد فهد في ذلك اليوم لم يكن يعلم بأني وجبته اليوم، بدأ يضحك ويسخر مني وبدأت الأصوات ترتفع. لم أستطع أن أتحمل؛ فركضت إلى مكتب المرشد الطلابي الذي استدعى ابنه، سلمه ابنه الورقة.

- كيف تكتب هذا الكلام؟

- هذا خطأ؟ لا أفهم ما الخطأ؟ هل أستطيع أن أكون شاعرًا عندما أكبر؟

- بالتأكيد، ولكن يفترض على من بسنك أن يركز في الدراسة.

- أرى أختي تدرس الأدب يوميًّا، وتردد قصائد وأشعارًا. جميعهم يحبون، ألا يحق لي أن أحب؟ أكتب عما رأيت، أين الخطأ لا أعلم، لا تعلم فمن الممكن أن تقتل قيسًا آخر.

- عد إلى فصلك يا سعد. ابقَ هنا يا خالد، أحتاج إلى استدعاء ولي أمرك حالاً، فنحن لا نسمح بالتجاوزات هذه إطلاقًا، نحن هنا لنعلم الأدب قبل الدراسة.

- أليس الشعر من الأدب؟ سألت.

- بلى، اذهب إلى فصلك وسوف أستدعيك إذا احتجت إليك.

ومن هنا بدأت علاقتي مع الكتابة، لا أحتاج إلى سعد آخر، تعلمت من درسي الكثير، لا أحتاج أن أكلم أحدًا، أو أبوح بأسراري كما فعلت وينتهي بي الأمر إلى لقب «جينيفر بوي» وبفخر وبلا منازع أطلق هذا اللقب عليّ محمد فهد، تلك القصة وفرت لمحمد فهد الترفيه لمدة ما يقارب الخمس سنوات؛ ولكن من حسن حظي بالصف الثالث متوسط نقل إلى فصلي طالب جديد، جاء متأخرًا في ذاك اليوم، ووضع كتبه بجانبي، وجه لم أرَه من قبل في المدرسة. كله لمصلحتك، كما ادّعى وانتهى، لن أثق بأي أحد بعد الآن. ابتسم لي وقال: أهلاً أنا مازن. من أنت؟ وفي تلك اللحظة عرفت مازنًا. آه مازن، سأقابله غدًا مع أبي. تأخر الوقت وأحتاج إلى النوم. ثقل كبير انزاح عن كاحلي، أخرجت القليل مما في صدري.

11/11/2012

الفصل العاشر

«سيرحلون جميعًا وستبقى أنت مع أنت».

الكاتب

(1)

المطاف به باستئجار صفحات يكتب بها، سأكون أنا ذاك الكاتب. اليوم هو صباح اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر للسنة الثانية عشرة بعد الألفين. أنا على موعد اليوم مع أبي ومازن، لا أعلم إلى أين نحن ذاهبون؛ ولكن يبدو بأن أبي متشوق للرحلة، لما أشارت عقارب الساعة إلى الثانية عشرة ظهرًا. في شهر خريفي، وخريف الرياض صيف بعد صيف. طرق أبي الباب بصوت خفيف:

- خالد، أنت مستيقظ؟

- نعم.

- الفطور سيجهز، تعال شاركنا أنا وأخوك.

- دقائق فقط وسأكون هناك.

- لن ننتظرك سنبدأ الفطور خلال دقائق.

عجلت وتجهزت ونزلت إلى المجلس، الطاولة فارغة كالعادة أنا وأبي وأخي عبد العزيز، اعتذرت أختي نهلة لهذا الأسبوع، رحلة تنقذها من الزيارة الأسبوعية، رحلة إلى المنطقة الشرقية، إلى البحر، رحلة بعيدة جدًّا عن هذا السكون كله. كسر أبي السكوت:

- هل أنت مستعد؟ نريد الذهاب اليوم إلى المستشفى.

- المستشفى لماذا؟ هل أمي وأخي محمد بخير؟

- نعم بخير، ولكن أريد الذهاب مع مازن، يشكو من آلام في رأسه منذ فترة ليست بقصيرة وتواصلت مع أحد معارفي في المستشفى وحدد له موعدًا مع الطبيب، وأخذت موعدًا لي لفحص سريع.

- مستشفى، تعلم بأني لا أحب الذهاب إلى المستشفيات، الإنسان ضعيف جدًّا، بكتيريا لا تراها بالعين المجردة قد تنهي وجودك على هذه الأرض.

- يا ابني الرجل بحاجة إلى المساعدة، نذهب معه ونستفيد بالفحص إذا كنت تخاف من المرض، الآن موسم الأمراض، بإمكانك أخذ تطعيم مضاد يحميك بإذن الله من الحمى والبرد.

- حسنًا ولكن سريع جدًّا، تعلم أني لا أحب الانتظار هناك.

انتهينا من الفطور وقال لي أبي:

- سيأتي مازن بعد ساعة، كن مستعدًّا.

- حسنًا أبي.

تركت مقعدي وصعدت إلى الغرفة، فالأضواء تتعب عيني، ارتحت عندما دخلت الغرفة. جلست على الكرسي، وبدأت القراءة.

الفصل الأول ولم أستطع الإكمال. وبدأت بكتابة مذكرات هذا اليوم. الأحاسيس والمشاعر أشياء غير مفهومة بالنسبة إلي، خصوصًا الأيام التي سافرت فيها أمي إلى مكة، لا أعلم متى ستعود، لا يرد عليّ أبي عندما أسأله عنها، المشاعر هي نتيجة نسب مواد كيميائية في عقل الإنسان، تجعلك سعيدًا في جنازة، وتجعلك حزينًا وسط نهار عيد، المشاعر هي من تجعل الحزن في قلب الضحك ممكنًا. البكاء لحظة فرح، ما زلت لا أفهم، أعرف الحب فقد مر بي؛ ولكن لا أعلم كيف كسبه أو فقدانه فقد وقعت به، لسبب أو لآخر تضع حياتك كلها بجانب لمشاركة شخص آخر جزءًا من حياتك، والتنازل بالآخر. يتناول بعضنا جرعة من الحزن يوميًّا من أغنية، موال ينحب به المغني وكأنه للتو دفن أعز إنسان بالوجود، أو حتى قصائد تساعد الدموع على الخروج، قصيدة تثير الحزن، إدمان المشاعر مصيبة كبيرة، هناك حياة كبيرة جدًّا تستحق العيش.

صوت أخي عبد العزيز بصوت عال:

- خالد أبي يقول بسرعة مازن في الطريق إلى هنا.

- حسنًا، حسنًا، أنا قادم.

تجهزت ونزلت، أنا لا أنتمي إلى أي شيء خارج هذه الأسوار، لا أنتمي إلى أي شيء وكفى. أين عبد الرحمن؟ سأسأل مازنًا فمن الممكن أنه بحث عنه، أبي ينتظرني بصالة الطعام المطلة على درج المنزل العام، عندما نزلت ابتسم وأمسك بيدي.

- هيا بنا يا بني.

مازن في المقعد الأمامي يقود المركبة، أبي بجواره وأنا في المقعد الخلفي. الأجواء بغرابة كانت باردة بعض الشيء. لماذا لم تلبس معطفًا يا خالد؟ ابتسم مازن وقال:

- مرحبًا خالد.

- أهلاً مازن، كيف حالك.

- أنا بخير.

- لم أظن أن الأجواء ستكون باردة، دقائق سوف أذهب لأحضر معطفًا آخر له.

- حسنًا يا عم.

انتظرنا لدقائق وإذا بأبي وبيده معطف.

- خذ البس هذا.

يدفع أيًا من الهواء ونسماته ويكفيني البرد. أصبحت كشراع سفينة، كنت نحيل الجسد، وكان المعطف يستقبل الهواء، ركبت السيارة من جديد وتحركت، أدار مازن المذياع، أسندت رأسي إلى النافذة وأخذت أنظر يمنة ويسرة، لا أشعر بأن المكان مألوف، ازدادت كميات البشر في هذه المدينة. لا أرى سوى معدات الحفر تنخر في وسط الشارع مكونة انسدادًا مروريًا قاتلاً. بدأ المذيع بالحديث، وابتدأ معه البذل العاطفي، أخذ يشبع العاطفة حسًا، أخذ يسيل وديانًا من جلد الذات، للحب والعشق

والخيانة والزعل. الصديق والحبيب وصديق البرنامج، منذ الصغر وأنا أريد أن أقابل صديق البرنامج، لا بد أنه شديد الأهمية وإلا ما استضافوه في البرامج كلها. أخفض والدي صوت المذياع وبدأ بالضحك:

- أتسمع صديق البرنامج ما زال موجودًا، لا بد أنه يعيش تحت صخرة كبيرة.

كان رفيقًا لنا بجولاتي أنا وأبي تذكرته وقلت:

- لا بد أنه صنع اسمه مع هذه السنين كلها.

ضحك والدي:

- نعم، نعم. الجميع يصنعون اسمًا بالتكرار الآن. هل أنت مرتاح هناك أم أقدم لك الكرسي؟

- لا. المساحة كبيرة، شكرًا.

التفت مازن إلى أبي وسأله بهدوء:

- ها ذا نحن قريبون جدًّا من المستشفى. هل تريد أن أنزلك أنت وخالد وأبحث عن الموقف؟

- لا. ننزل جميعًا. اذهب إلى موعدك أنت، وأنا وخالد سننتظر في غرفة الانتظار.

- حسنًا يا عم طارق.

توقفت المركبة، نزلت أمشي إلى الباب، المشهد ليس مألوفًا نهائيًّا. الكثير من النساء يرتدين الحجاب. أتذكر بأني كنت أراهن في كندا، الكثير منهن كنَّ يدرسن معنا في فترة اللغة، كنَّ محجبات ولكن ليس هنا. عندما رأيت سارة كانت محجبة هي أيضًا. في تلك الحقبة لم أكن جريئًا، أتذكر في أول مستوى في اللغة عندما كنت أدرس في جامعة يورك، لم أملك أي كلمة من اللغة الإنجليزية سوى «نعم ولا». كانت الجامعة تبعد نصف ساعة من العائلة التي كنت أعيش معها في ذلك الوقت. خرجت وأنا متأخر في يوم ثلجي أبيض. أبحث عن اللحظة الأولى في فترة دراستي ما بعد الثانوي. أخذت قدماي تغوصان في الثلج وأنا في طريقي إلى قطار الأنفاق، دخلت القطار. لا أتذكر بدل الأجرة إلى هذه اللحظة. قطارات تورنتو كم تكلف؟ أخذني قطار الأفكار.

- اجلس هنا يا خالد.

- شكرًا أبي.

جلست بهدوء في غرفة صغيرة لا يوجد فيها سواي وأبي. سأذهب لأستفسر عن الفحص بينما مازن ينتهي من الموعد. جلست وحدي، دخل رجل بعمر والدي في منتصف الأربعينيات على ما أعتقد. بدأت الشعرات البيضاء تغزو رأسه، نظر إلي وابتسم، لم أعد أنظر إليه. دائمًا الابتسامة هذه تكون فاتحة للمحادثات، لا أرغب بالحديث، وأبي تأخر بعض الشيء، دخل أبي وقال:

- سنضطر للانتظار بعض الشيء، سيجري مازن أشعة على كل حال، لن يستغرق طويلاً ولكن علينا الانتظار.

جلس أبي. ثم قام مرة أخرى وأغلق الباب. لا أحب الأبواب الموصدة في الأماكن العامة.

- هل تعلم كم من الوقت سيستغرق؟

- لا. لا أعلم. أخبرني هل ساعدك أخوك عبد العزيز على نشر مدونتك بالأمس؟ لعبد الرحمن؟ القصة.

- نعم نشرتها، ولكن يقول عبد العزيز إنه لم يعلق أو يصله أي رسالة.

- جميل جدًّا، وما القصة، عمّ تتحدث؟ لم يسبق لك أن شاركتني إياها؟

- شخصية بطل يُدعى موكلي ولديه كذا صديق ديمور وشمامة، وأخرى تدعى لي. وشخص آخر يُدعى علوي.

- جميل.

ابتسم. رفعتُ رأسي وإذ بالشخص الغريب يسأل:

- القصة تبدو مثيرة. وكيف تعرفت على شمامة وموكلي ولي؟ هل هم أصدقاء لك؟

- لا ليس لديّ أصدقاء أنا. عبد الرحمن صديقي من كندا، ومازن أيضًا صديقي منذ الصغر ولكن لم أره منذ فترة، أظن أنه في متوسط الأشعة الآن.

- أنا آسف، ولكن لا أعرف من أنت؟ أنا أبوه طارق.

- اللحظة هذي جمالية الصورة والتصوير. أنا حمزة، فرصة سعيدة طارق، أنا آسف على الفضول؛ ولكن سمعتك بالمصادفة وأنت تتحدث عن القصة، أنا حمزة لبناني الأصل، مقيم هنا بالسعودية منذ ما يقارب العشر سنوات، لبناني كندي.

بدأ أبي مشاركة الحديث ويبدو عليه الحماس:

- أوه كندا سمعت الكثير عنها. خالد عاش هناك لمدة طويلة. يقول إنه احتمال أن يعود هناك. أليس هذا صحيح يا خالد؟

- نعم يا أبي نعم. هل سيتأخر مازن؟

- مازن. لا تقلق سيخبرني عندما ينتهي، سأذهب إلى مكتب الاستقبال أسأل عن الفحص، هل حان دورنا أم لا. وسأحضر شايًا من البوفيه. هل تريد شيئًا؟ لا شكرًا أبي. ماذا عنك يا حمزة؟

- شكرًا أخي لا أريد شيئًا. حسنًا إذًا سأعود بعد دقائق.

سكت لدقيقة أو اثنتين وحمزة يحاول كسر السكوت، يتنحنح ويبتسم، إلى أن قرر وبدأ بالحديث:

- إذًا في أي جزء في كندا كنت تعيش؟ في الغرب بين الجبال والغابات أم في العاصمة أوتاوا؟

- لا هذا ولا ذا.

- تورنتو إذًا؟

- نعم كنت في تورنتو عشت هناك لمدة أربع سنوات. جميلة تورنتو.

رفعت رأسي لأسرق لقطة من وجه الرجل؛ لتساعدني على الحكم على أقل حال. حمزة متبسمًا وبيده قلم وورقة وكأنه يستعيد الكثير من الذكريات.

- آها هذا وقت طويل، لا بد أنك تعرفت إلى الكثير من هناك. أنا وُلدت في كندا مونتريال الجانب الفرنسي.

- نعم أعرف مونتريال سبق لي أن زرتها ليوم واحد، لوهلة تشعر بأنك أخذت رحلة إلى أوروبا.

ابتسمت وأنا أنظر إلى تلفاز عتيق معلق بالجدار عاليًا، يعرض فيه برنامج شعبي جدًّا. لا أظن بأن المقدم يعلم أن أحدًا يتابعه في هذه اللحظة. كل ما يحتاجه المقدم هو الاهتمام، أي اهتمام بهدوء، قاطع حمزة سلسلة الأفكار وقال:

- القصص، تكتب من نحن ولكننا جميعنا نجهل النهاية. عشت في كندا جزءًا كبيرًا من حياتي، وعندما بلغت السابعة عشرة بدأ أبي يرسلني في كل صيف إلى لبنان لأتعلم اللغة العربية. تعلمت العربية والإنجليزية والفرنسية. انتقلت بعدها إلى أونتاريو لسنتين، عشت في تورنتو، وانتقلت إلى فانكوفر لما يقارب العشر سنوات.

رفعت رأسي وقلت له:

- هذا مثير جدًّا للاهتمام.

وأنا بداخلي، أكرر لهذا السبب أنا لا أحب الانتظار في المستشفى، خيب آمالي بأن القصة قد بلغت النهاية وقال:

- فانكوفر كانت أجملها للأمانة، هل سبق لك زيارة فانكوفر.

- لا، لم يحالفني الحظ أتمنى في الأيام القادمة.

- فانكوفر هي هوليوود الشمال، كنت أعمل هناك في مجال الأفلام. كتابة في الغالب.

نظرت إليه بدهشة وقلت:

- أنا أيضًا أحب الكتابة.

- جميل، أي نوع من الكتابة تحب؟ القصص أم التدوين؟

- أحب كتابة القصص، لست من محبي التدوين. بدأت التدوين بحثًا عن صديق لي في كندا اسمه عبد الرحمن.

أنتظر أبي، بدأ جسمي بالتعرق، لا أرتاح مع الغرباء وحيدين في غرفة.

- لماذا أنت هنا يا خالد؟ أخبرني المزيد عن القصة يا خالد؟

- لا أتذكر الكثير، لدي في المدونة، بإمكانك الاطلاع عليها كلها في الإنترنت، أبي يعرف.

- من الواضح أن علاقتك وطيدة بعبد الرحمن وإلا ما حاولت أن تتواصل معه.

- في الحقيقة لا أتذكر الكثير عنه ولكن وجدت مجموعة أوراق كتبت لحظة لقائنا الأولى في تورنتو، تبدو كلحظات ممتعه للأمانة. أنا سوف أطلع على كتاباتك. شكرًا للحديث معي خالد، قد أتى دوري الآن.

أمسك بدفتره وقلمه الخشبي وهم بالرحيل. لا أحب الحديث مع الغرباء ولكنْ في بعض الأحيان قليل منهم قادرون على كسر المخاوف. اختيار الكلمات، والأهم الابتسامة. يبدو أن حمزة رجلٌ صالحٌ. ظن ما تشاء بمن تشاء فجميعهم متقاربون. لقد استغرق أبي وقتًا طويلاً، أنا الآن وحدي في مكان غريب؛ والأغرب أنه مستشفى. كل الكوابيس والأحلام السيئة تتشارك مع الظروف التي أنا فيها الآن، غرفة انتظار فارغة، مجلات من العصر الحجري والأهم باب مغلق والمقدم لم يزل يشحذ الاهتمام، كل الاحتمالات بإمكانها أن تدخل من ذلك الباب. نهضت عن الكرسي، فتحت الباب أبحث عن أبي، لما هممت بالخروج ارتفع صوت إحدى الممرضات التي تبدو من أصول آسيوية، مستر عبد الرحمن ارجع إلى الانتظار، ومن بعدها تحركت مسرعة إلى مجموعة مكاتب في آخر الممر. بعد أقل من دقيقة خرج أبي ومازن من الغرفة.

- أهلاً أين ذاهب يا بُني.

- أبحث عنك، لماذا استغرقت وقتًا طويلاً؟

- أنا آسف ولكن كان مازن بحاجة إلى فحوصات إضافية.

- أريد أن أرحل، أرجوك يا أبي أخرجني الآن. فلنذهب وننهي الفحص ونرحل.

عدنا إلى غرفة الانتظار، دخلت الممرضة التي كانت تنظر إلي وتقول عبد الرحمن. لا أعلم ولكن أحسست أنها تعرفني، ابتسمت ابتسامة العمل المطلوبة، نصف ابتسامة تخفي فيها كل ما واجهته في يومها هذا من نكد وهم، أخذت مقياس الضغط، ونبضات القلب، جاء وقت الدم، آه نقطة ضعفي، فالدم من مسببات السقوط عندي، قلت له بوجه عابس:

- إبرة، ليس بالضرورة سحب الدم.

- ولكن يا ولدي ستساعد على تشخيص المرض، ستريحك كثيرًا، أرجوك يا ابني فقط أغمض عينيك وانظر إلى الجهة الأخرى.

أغمضت عيني وسرحت في خيالي لو أرى قطرات فقط تصيبني بقشعريرة تجعل شعري يقف وكأنه نسيم رطب بارد قد لامس جلدي الآن، وإذ بوخزة تخترق ذلك الجلد، جميع ما بي يعترض إلا إني تمالكت نفسي، أبي يحاول تلطيف الجو:

- هو نحيل جدًّا فلا تسحبي دمه كله، أبقي له بعض الشيء.

تلاها ضحك هستيري من مازن والممرضة. إن كان أبي جعلهم يضحكان بهذه الهستيريا في مستشفى فسينجح في إلقاء العروض الكوميدية. أحاول جاهدًا تشتيت انتباهي على الرغم من أني دائمًا مشتت، إلا على نقاط ضعفي. بدأت قصة كرهي للون الأحمر قبل أن تنحصر بالدم فقط، وهي عندما كنت بالصف الخامس ابتدائي، كنت في طفولتي أحاول تقليد أي شيء يفعله أبي لأصبح رجلاً. فالرجل لا يكذب والرجل كريم والرجل أيضًا قوي.

كيفما تشاء، هذه المعضلة. حاولت جادًّا أن أُري أبي بأني رجل ليأخذني معه، لأكون صادقًا فأنا لم أخلُ من المشاغبة، وكلما غضب مني بدأ بالصراخ؛ لو أنك رجل لفعلت كذا وكذا، ليس فقط وهو مستاء؛ بل وحتى إذا كان راضيًا، ودخلت عليه هو وأمي جلوس بغرفة المعيشة قال: انظري إلى ولدي كبُر وأصبح رجلاً. في يوم قررت أن أجعل أبي يراني رجلاً، ليأخذني معه، ويعاملني كرجل. كنت أريد أن أقنعه أني رجل ليجعلني أستخدم الإنترنت لمدة ساعة في ذلك اليوم. كان يومًا مشمسًا في نهار عيد الأضحى، تُقاد الضحايا إلى حتفها، والجميع يكبر ويذكر المولى. مررت بأبي وإذا هو يستعد لتذكية الخروف، وأنا أنظر من بعيد، هل لي أن أفعلها يا أبي؟ صرخت. نعم تعالَ، دعا أخي الآخر ليمسك رجليها، أمسكت السكينة ومررتها على رقبة الخروف، بدأ الدم يتدفق بقوة

والبخار ينبعث، دافئ جدًّا، توقعتها ستكون أسهل مما شعرت به، ما إن ابتدأ الدم يتدفق بغزارة حتى التفت أبي وقال: ناولني السكين، ووضع حدًّا لحياة الخروف، ابتسم أبي وبدأ وكأنه فخور، وأطلق عليها ذبيحة الذئب. الذئب في هذه القصة هو أنا. في كل لحظة أرى فيها دمًا أرى بيدي السكين؛ ولكن بدلاً من أن أمررها على رقبة الخروف أراها تبدأ بيدي.

- لا أستطيع أكثر من هذا يا أبي، هل انتهت؟
- نعم يا ابني لقد انتهت منذ دقائق.
- أنت أغمضت عينيك وظللت تنظر إلى الجهة الأخرى.
- آه أنا آسف هل حان وقت الذهاب إلى المنزل؟ لم أعد أطيق رائحة المستشفى.
- انتهيت يا مازن؟
- نعم يا عم لقد انتهيت فلنرحل.

ركبت السيارة وفي طريقنا إلى البيت، شعرت أن الجميع ينظرون إليّ، الجميع يراقبونني، لا أستطيع تحمل تلك العيون كلها التي تلاحقني، ركبت بالمقعد الخلفي وأغمضت عيني، أريد ظلامًا فقط الآن. لا أريد شيئًا سواه، بدأت أشعر بضيق تنفس، كمية أكسجين أكثر، نفسٌ طويل، هل أنت بخير؟ نعم نعم، أشعر بضيق، تنفس فقط. وصلنا البيت، ترجلت ودخلت مسرعًا صعدت الدرج ودخلت الغرفة، شعور سجين، حُبس لسنين وهو ينام ويستيقظ على حلم الحرية، وعند الخروج اكتشف أن البشرية شرسة، يأكل بعضها بعضًا، شعر بأن السجن في تلك اللحظة سيكون المنزل، جلست على الطاولة وكتبت يومي هذا.

11/11/2012

الفصل الحادي عشر

«ليست كل الذكريات جميلة؛ ولكن
السيئة جعلت للجميلة معنى».

الكاتب

(1)

استيقظت في هذا الوقت المتأخر من الليل، ألقيت نفسي على السرير مباشرة بعد القليل من الكتابة، لا بد أن أسأل عبد العزيز إن كان عبد الرحمن راسلني أو سأل عني. سارة، سرقني التفكير من سارة، لا أعلم لماذا ولكن في كل لحظات الضعف تظهر لي سارة، سأقرأ في المدونة عن بعض الأمور حتى تتضح الصورة لديَّ فأنا مشتت، فقد وجدت اسمها بينما أنا أبحث عن نفسي في هذه المذكرة.

لم أكمل أول يوم لي في معهد يورك، ركبت القطار، وأنا متمسك كليًّا بما جئت به، عاداتي وتقاليدي ومظهري، أوصاني أبي مرارًا وتكرارًا ألاَّ أنسلخ أو أذوب مع الجميع وأصبح منهم، في آخر يوم وقبل ركوب الطائرة المتجهة إلى كندا، أمسكني أبي، فتى بالثامنة عشرة وقال لي: يا بُني أنت ما تزال صغيرًا، اذهب واحصل على تجربتك؛ ولكن لا تتحدث بالسياسة، ولا تفرط بعاداتك وتقاليدك. فعلت الكثير لكي أستمع إلى نصيحة أبي ولا أخذله؛ ولكنها كانت صعبة، لا تأتي الأمور بالوضوح الذي كان يراه أبي. ركبت القطار في ذاك اليوم وأنا أستمع إلى عبد الحليم حافظ عبر الهاتف، ممسكاً بقهوتي في طريقي إلى الجامعة. في اليوم الأول وأنا أرسل ابتسامتي هنا وهناك، وأخذت أمشي وراء جموع البشر المغادرة القطار إلى محطة الباصات. الذاكرة لي وهم شركائي.

جمالية فنون الإنشاء، أن أعبر وآخرون يشعرون. رفعت رأسي وأخذت أبحث عن أي علامة إلى أن وجدت باصًا كُتب عليه جامعة يورك 196، رحلت إليه، الأجواء باردة جدًّا، ركبت الباص وبدأ بالحركة، عندما وصلت وسجلت جميع معلوماتي؛ أدخلوني إلى قاعة كبيرة، وبدأت امرأة كبيرة يبدو أنها من السكان الأصليين تتحدث، علمت من لغة إشاراتها أنها كانت تتحدث عن المعهد والأنظمة، الكثير من أبناء جلدتي هنا، لم أشعر بالغربة لوهلة، ولأول مرة منذ وصولي إلى

كندا، شهر تقريبًا. انتهت المحاضرة ووزعت علينا بعض البروشورات. وبدأ الجميع بالرحيل لاستكشاف المكان، لم أعلم هل انتهينا أم لا، وقفت أمام الباب إلى أن مر شخص تبدو عليه العروبة، قرر في ذلك اليوم أن يلبس قميصًا أحمر جدًّا. من حسن الحظ أني في تلك اللحظة كنت قد تعديت حساسية اللون الأحمر، ولكن بقيت معي مشكلة الدم، الأحمر اللزج. سألته:

- عذرًا أخي هل انتهينا؟

- لا. اختبار تحديد المستوى بعد ساعة.

- شكرًا أخي.

رحلت فالجوع ينخر معدتي، وفي طريقي إلى المعهد رأيت تيم هورتنز؛ فلعلي أعود من حيث جئت وآكل شيئًا وبعدها أبدأ بالاختبار ومن ثم الاستكشاف. رحلت إلى تيم هورتنز، وقفت في طابور طويل جدًّا، الكل يبدو منهكًا، أكبر همٍّ في تلك اللحظة كيف سأطلب ولو لم تفهمني، كيف سأتصرف؟ أتمنى ألاّ تضعني في موقف محرج، الحمد لله في ذاك اليوم مرت الأمور بسلام، وكأن اليوم أبى إلا أن يظهر في أبرز حلة. رفعت رأسي وأخذت أبحث عن مقعد، وجدت واحدًا يطل على الخارج، اليوم هو أجمل يوم لولا تراكم الثلوج، جلست أتناول فطوري الكرواسون مع الجبنة البيضاء، وأنظر إلى البشر، إلى أن مرت أمامي سارة، كانت تلك المرة الأولى أبطأ لحظات حياتي، كانت تمشي لعدة خطوات ومن ثم ترفع رأسها وكأنها تبحث عن علامة، ومن ثم تنظر إلى الورقة التي بيدها وتبدو أنها خريطة، تبدو وكأنها تبحث عن شيء ما أو مكان ما، أجمل ما رأت عيناي إلى تلك النقطة، التفتت إليّ وبدأت تنظر إلى الزجاجة. أنزلت عينيّ بسرعة، توجه نظري كله للأكل. وأخرجت الهاتف وبدأت التصنع بأني أنظر إليه. بعد دقيقة رفعت رأسي ولكنها لم تكن موجودة هناك. أنهيت أكلي سريعًا وحملت حقيبة الظهر للخروج، فور خروجي بدأت أسمع صوتًا من بعيد. (اسكيوزمي)؛ ولكن اللهجة لم تكون غريبة، لهجة عربية، التفت وإذا بالفتاة نفسها التي رأيتها منذ قليل، هززت رأسي بالتجاوب، وقالت لي باللغة الإنجليزية:

- هل تتكلم العربي؟

أنا أنتهي هنا. في تلك اللحظة لم أكن أتحدث اللغة؛ ولكن فور سماعي لكلمة عربي لم أتردد بأن أقول:

- نعم.

يبدو عليها الحيرة، كأنثى البطريق الإمبراطور، خرجت في موسم الصيد لشهرين وبدأت خطوات العودة تختفي، وهي تعلم بأنها لا تتأخر بالعادة، حياتها وفراخها أيضًا الذي يرعاه أبوه على المحك. قاطعت أفكاري المتخبطة وقالت:

- أنا تائهة، أنا من المفترض أن أكون في معهد لغة هنا منذ ساعتين.

- أنا كنت هنا، لم يحدث أي شيء مهم، لديّ هذه البروشورات بإمكانك أن تطلبيها لاحقًا، وأيضًا اختبار تحديد المستوى بعد نصف ساعة.

- شكرًا لك أخي الكريم، أنا آسفة على هذا الإزعاج.

- لا، بالطبع كلنا بحاجة إلى المساعدة في بعض الأحيان، أنا ذاهب إلى هناك، طريقنا واحد.

جمال سارة ملحوظ، كنت أحاول ألاّ أرفع عينيّ؛ ولكني لم أنجح في كل مرة، أرفع عينيّ وهي تحدثني عن تخصصها ورغبتها الدراسية، وأفقد نفسي بين عينيها، أو حتى أتخيل لو أنها أتت مبكرة لما حدثتني، وصلنا إلى قاعة الاختبار، ابتسمت ابتسامة صغيرة وبريئة. وشكرت لي، سألتها:

- المعذرة اسمك الكريم؟

- أنا سارة.

- فرصة سعيدة يا سارة.

- شكرًا لك.

ورحلت سارة تكلم المنظمين، تسمرت في مكاني وتمنيت أن تعود؛ أريد أن أتعرف إليها أكثر. بدأ المنظمون بالدعوة لقد بدأ الاختبار، لم يبتعد عن بالي الهاجس، قد بدا أنها تتحدث جيدًا، لا أتوقع بأنها ستكون بمستواي نفسه، خلصت مبكرًا ورحلت، بعد دقائق سلمت الورقة وخرجت. أردت أن أسألها كيف كان الاختبار، أو حتى هي تسألني، لم يكن هناك أي أثر لها. انتظرت لدقائق إلا إن لونًا أحمر بدأ بالخروج من القاعة.

- مرحبًا أخي كيف كان الاختبار، أظنه كان سهلاً.

- أنا عبد الرحمن وأنت؟ أنا سلطان.

- فرصة سعيدة سلطان.

- لقد انتهينا اليوم ما الذي تنتظره، هل أنت ذاهب للباص فأنا ذاهب بذاك الاتجاه.

- لا أنتظر شيئًا. نعم فلنذهب.

- ...

أخبروني أن المستويات سوف تعرض بالغد. سلطان بدأ بحكاية تجربته، التي كانت مشابهةً لتجربتي ببعض الجزئيات، في تلك اللحظة علمت بأننا بإمكاننا المشاركة بالفرح وكذلك الحزن، مشاركة الحياة تزيدها سهولة وانتهى يومي مع سلطان عندما وصلت إلى محطة توقفي.

5/3/2009

(2)

قاطع عبد العزيز الذاكرة، بطرقة قوية على الباب:

- خالد، ألا تريد تناول الفطور؟ أبي ينتظرك بالأسفل.

- حسنًا، أنا قادم بعد دقائق.

أخذ دقيقة ومن ثم عاد طرق من جديد.

- قلت لك سأنزل بعد دقائق.

فتح الباب وأدخل رأسه وقال:

- لقد وصلتني رسالة في مدونتك اليوم على فكرة.

- ها مدونة من الذي أرسل؟ هل عبد الرحمن حاول التواصل معك؟

- لا. لم أحصل على أي رسالة جديدة؛ ولكن شخصاً يُدعى حمزة ترك تعليقًا ووضع بريدًا إلكترونيًّا، أظن أنه يريد التواصل.

تعليق من حمزة كفيل جدًّا بأن يشعل الفضول بداخلي؛ بل تعليق واحد من أي كان قادر على أن يشعل الفضول بداخلي، فأنا من الذين يعتقدون بأن لديهم الحق بالرد على كل ما يُقال:

- قال لي أبي إنه يجب عليك مواعدته هذا الأسبوع. ما رأيك أنت؟

- حسنًا، حسنًا. سأنزل بعد دقائق.

بعد دقائق نزلت وإذا أبي وأخي جلوس على الطاولة وكأنهما في اجتماع بمجلس إدارة شركة مساهمة.

- مرحبًا خالد.

- أهلاً أبي.

- خالد، ها. ضحك عبد العزيز.

- الزم الصمت أنت. كيف حالك يا بُني؟ كيف الصداع هل أفادتك الحبوب التي جلبتها.

- نعم إلى حد ما؛ ولكن ما زلت لا أستطيع التركيز، أشعر بدوار في بعض الأحيان.

- ليست مشكلة، ستشعر بتحسن عن قرب بإذن الله. قال لي أخوك إن حمزة الرجل من المستشفى يريد مقابلتك، هل تريد مقابلته وربما الحديث عن روايتك أو كتاباتك ربما يساعدك على الالتقاء بعبد الرحمن مرة أخرى. هو من كندا ومهتم.

- حسنًا، تواصل معه يا عبد العزيز وأخبره بأننا سنقابله هذا الخميس.

- سأرسل له بعد الفطور يا أبي.

وانقطعت الأنفاس بعد هذا الحوار البارد.

11/11/2012

الفصل الثاني عشر

«هل الذكرى هي ما تجعلنا أقوياءً،
وتجعل للحاضر وجودًا، أم تجعلنا ضعفاء
نرجو أن يعود الأمس».

الكاتب

(1)

هنا أكتب بداياتي في تورنتو وفي يوم ماطر، بعد أن ذابت الثلوج في نهاية شهر إبريل، الجميع يعلمون بأن إبريل هو شهر مخادع، بداية كذبة إبريل إلى الربيع المزيف في تورنتو، فأخبر في تورنتو عبارة عن يوم ربيعي مشمس، وثلوج مفاجئة بالغد، من حسن حظي كان ذلك اليوم مشمسًا، ذهبت مع سلطان، تعرفت إليه في المعهد آنذاك، كنت نحيلاً جدًّا في ذلك الوقت، لم يكن جسمي يستقبل كميات كافية من الأكل فقد كان يمر علي اليوم بلا وجبة، هي نفسها حقبة عبد الرحمن والمقهى. اتصل بي سلطان في ذلك الصباح نفسه، بينما كنت أنا وجوردانا وزوجها ماريو ننظفُ الحديقة الخلفية في يوم أحد جميل. كانت جوردانا تنظف آلة الشواء وماريو يقلم الشجيرات، وأنا أمارس اللغة الإنجليزية وأشرف بين الفينة والأخرى. لم تذق جوردانا الشاهي مع النعناع من قبل، أنا من فتح لها الباب لذلك العالم. الثقافات بشكل عام وجدت للتشارك، ولشرح الكثير عن أساليب البشر للعيش، رغبة البشر بالخلود مثيرة جدًّا للاهتمام، أن تذكر أسماءهم لأي سبب كان، أن تتذكرهم البشرية. الموت يخيفهم جميعًا، حتى أنا واحد منهم. الاختراعات والأفكار دائمًا تنسب لمن ادعاها أولاً؛ ولكن ماذا عن أول من شرب الشاي، أو أول من حمص القهوة، أو حتى أول من وضع على الكرواسون زبدة، أو قرر أن يتذوق المانجو. لماذا لم يخلدوا لجمال اكتشافاتهم.

بعد الساعة الرابعة، أخذني سلطان بسيارته إلى مباراة كرة قدم، تعود سلطان أن يتجمع مع زملاء له بالجامعة ويلعبون كرة القدم؛ ولكن لنحول جسمي فضلت عدم اللعب، كانت المباراة أشبه بمضاربة شوارع، الكل يضرب الكل لسبب ولغير سبب. لم تكن لي نية اللعب من الأساس، فأحضرت معي قهوة، وجلست على الجدار أشاهد المباراة من بعيد. بعد دقائق، توقفت بجانبي دراجة وسائقها قد تلثم بشال رصاصي، ويبدو أنه أعد العتاد للبرد القاسي، لقد خدعه إبريل كالبقية،

ترجل عن دراجته، وفك اللثام، وإذا برجل يطغى على شعره الشيب، لست جيدًا بالتخمين ولكن أتوقع بأن عمره يقارب الخمسين، تبسم وبدأت خطواته تتجه نحوي.

- مرحبًا. قال لي باللغة الإنجليزية.

- مرحبًا.

- هل لي بأن أجلس بجانبك؟

- بالطبع، تفضل.

- اسمي محمد، ما اسمك؟

- أنا خالد.

- فرصة سعيدة خالد. هل أنت من هنا؟

- لا. أنا من المملكة العربية السعودية.

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- لمتابعة صديقي، حارس المرمى للفريق الأبيض.

- لا. أقصد إلى كندا؟

- آه إلى كندا. التعليم، أنا أدرس اللغة في الوقت الحالي، أحاول أن ألتحق بالجامعة لمرحلة البكالوريوس.

- جميل جدًّا، أحييك على هذه الشجاعة. يبدو لي أنك صغير بالسن، كنت أصغر منك عندما هاجرت إلى هذه البلاد، قصة طويلة، أنا مسلم. على فكرة هل أنت مسلم؟

- نعم أنا مسلم. أغلبية السعودية مسلمون.

- أعلم ذلك، لست بتلك الحماقة، ابني اسمه مصطفى وأمي عائشة؛ لكني لست ملتزمًا بالدين فلدي أخطائي بين الفينة والأخرى.

- ومن أنا لأحكم. أجبته وأنا أتبسم.

كنت أحاول أن أتجنب أي أحاديث دينية أو سياسية لعلمي بأن لغتي لن تسمح لي بإيصال ربع فكرة، سأكتفي اليوم بالاستماع والاتفاق والقليل من تحريك الرأس لكي يشعر بالتفاعل.

- ما قصتك؟ سألته.

- أنا من البوسنة، هل تعرف البوسنة؟ سألني وهو يتبسم.

- نعم أعرف البوسنة والهرسك.

- عشت هناك في قرية صغيرة إلى أن بلغت السادسة عشرة، بدأ يحرك قدميه على الجدار وأنزل رأسه، لا أحب أن أستعيد الذكريات السيئة، الشعور بالماضي السيئ. ولكن بهذا السن أعلم بأن كل ما حدث لي من ماضٍ سيئ وجميل هو أنا، يجب أن أتقبل من أنا. أغلب سكان القرية التي كنت أعيش فيها مزارعون، وكذلك أبي، كنت أذهب معه أنا وأخي الصغير بعد صلاة الفجر، كان أبي مسلمًا ملتزمًا جدًّا لا تفوته الصلاة، في تلك الأيام كان جيراننا المزارعون يأتون بين اليوم والآخر لتناول الشاهي أو القهوة وتبادل الحديث مع أبي، وأنا وأخي الصغير نرغب في تقبلنا كرجال، فلم يعد لقب شباب يفي بالغرض في هذه القرية.

أنا الآخر كنت للتو قد تزوجت ابنة جارنا التي تسكن معي في بيت أبي، كان عمرها آنذاك أربع عشرة سنة. كانت أغلب الأحاديث التي تدور في مجلس أبي عن جيوش يوغوسلافيا وبطشهم، وتهديمهم للمساجد وبشاعة الأفعال، كان كل واحد يتلذذ بأن يخبر قصة وحشية أسوأ. الجميع مستاء وكذلك أبي، في ليلة شتوية باردة، لم يكن أبي ورفاقه يعلمون بأن الدور قادم، اجتاح الجيش القرية، أصوات إطلاق نيران هو كل ما أسمع، نفير بالمنزل، أبي يضرب أبواب الغرف هيا هيا تحرك، كل ما كان يصور لي في تلك اللحظة هو القصص الوحشية، كنت أرغب أن أكون رجلاً؛ ولكن في تلك اللحظة علمت أني لم أزل جاهلاً في هذه الحياة، أريد العيش، بالكاد تزوجت بعد ما استمررت بإقناع أبي لمدة سنة كاملة.

استيقظت زوجتي من النوم، وذهبنا جميعًا إلى المخبأ الذي صممه أبي خصيصًا لهذا اليوم قبل أشهر، لم يكن أبي يتوقع بأن الموت سيأتيه إلى بيته؛ ولكنه كان يعلم بأن اليوغسلافيين قادمون.

ادخلوا هنا هيا، وأدخل أخويك معك. اختبأت أنا وزوجتي وأخواي الاثنان، أغلق أبي الباب علينا. تسأل أمي أبي بهلع، ما الذي سيحصل لنا ما الذي سيحصل لنا؟ الزمي الصمت أنت الآن. أحاول حبس أنفاسي، أنفاس أخي بأذني، أشد ما يخيفني بهذه اللحظة، بدأ الطرق على الباب، ازدادت أنفاس أخي، المكان ضيق وعاتم جدًّا. لا أسمع سوى صوت اليوغسلافي كان يصرخ بالصربي، افتح الباب افتح الباب، نعلم أنك في الداخل، توقعت أني سأموت من سكتة قلبية أو انعدام للأكسجين، فتح أبي الباب وبدأت الأصوات تتعالى، ومن ثم بدأت الأصوات تهدأ.

توقف محمد عن الحديث وبدأ بتفتيش جيبيه، لم يكن هناك إلا صوت اللاعبين في الملعب، ذهب إلى دراجته، وبدأ يبحث في حقيبة ظهره، وكأنه يبحث عن دليل أخير يثبت براءته من قضية جزاؤها الموت.

- آه، وجدتها.

- ما الذي وجدته؟ سألته باستغراب.

- وجدت الساندويش، بدأ يهاجمني الجوع، ساندويش الستيك مع الجبنة البيضاء، صنعته بنفسي، الألذ صدقني، هل تريد تجربته؟

- لا. شكرًا، لست جائعًا.

- أين توقفت أنا!

- لما دخل الجنود إلى منزلك.

- بدأت الطرقات ولم يكن سوى الجندي يصرخ، اخرج أعلم أنك بالداخل، وأبي لم يرد، بالطرقة الثالثة على ما أظن، سمعت الباب ينفتح، وتجمد الدم في أوردتي، بدأت أنفاس أخي تزداد، كأن أبي كان يعلم عن هذا اليوم، قبل سبعة أشهر، بدأ أبي عمليات الحفر بغرفة المعيشة، كنا جميعًا نظن بأنه يصنع مخزنًا للأكل أو المؤونة في الشتاء، برد البوسنة شديدٌ جدًّا. من عادات أبي أن يضع المؤونة في غرفة مجاورة للمنزل بناها قبل سنين كمستودع وخصيصًا لهذا الغرض؛ لكي تتجمد اللحوم والخضروات فلا تفسد.

- ما الذي حدث بعد ذلك؟

- أخذوا أبي وأمي ولم أرهما بعدها في حياتي.

يقولها وهو يتلذذ بساندويشه وكأنه يعيد القصة للمرة المليون، من الممكن أنه مع كثرة التكرار اعتاد على الحياة بدونهما.

- فقط هكذا؟ سألت باستغراب.

- نعم، ليس هم فقط، الكثير من القرية، في ذلك اليوم لم تعد القرية كما كانت، هل أنت متأكد أنك لا تريد قطعة منها، تكاد عيناك أن تأكلا معي.

- لا. أنا مذهول فقط، هذا وحشي جدًّا.

- كان مفزعًا جدًّا لشاب بعمر صغير فعلاً، ولكن لم تهدر قطرة دم في المنزل، بقينا في المخبأ لمدة ساعة تقريبًا، بدأت الأجواء تبرد بشدة وما زالت أنفاس أخي تخترق أذني، لم يتكلم أحد، كلهم ينتظرون مني أن أفعل شيئًا، لم يهمس أحد بحرف؛ ولكن تلقائيًّا نقلت إليّ المسؤولية، دفعت الباب المربع الصغير، أخرجت رأسي التفت يمنة ويسرة، وإذا بالستائر تتراقص مع تيار الهواء البارد، لقد تركوا الباب مفتوحًا، خرجت مسرعًا إلى الباب الخارجي وأغلقته، أدخلت رأسي وهمست اخرجوا الآن. عاد عقلي إلى جسدي الآن، وبدأت نبضات قلبي بالنزول تدريجيًّا، في هذا البرد الشديد جسدي يتعرق. أخي الآخر يصغرني بأربع سنوات، وبدأ فجأة بنوبة بكاء: أين أمي، أريد أمي! في الحقيقة في تلك اللحظة كان كل ما يشغل بالي هو أمي وأبي إلى أن قاطعتني زوجتي: أمي.. أبي! أريد أن أذهب وأتأكد أنهما بخير، لا. الوضع خطير جدًّا لن يخرج أحد من المنزل الآن. أنا ذاهبة حاول أن توقفني أو تعالَ معي. حاولت أن أوقفها؛ ولكن للحظة أتاني أمل أن أرى والدي. أحضري معطفي ومعطفك وأنا سأخرج مصباحَ والدي من المطبخ. أحضرت المصباح وإذا بدقات الباب من جديد. بصوت خفيف ادخل ادخل المخبأ. نوبة هلع انتابتني، إلى أن صرخ عمي: افتح يا محمد أنا عمك سلطان. آه سلطان.

- كاسم صديقي الذي أتيت معه إلى هنا. قاطعته مبتسمًا.

- بأي مركز يلعب صديقك.

- حارس المرمى.

- صديقك يحاول أن ينعش جثة هامدة، لقد استقبل خلال الدقائق التي نتحدث بها على الأقل ثلاثة أهداف، لا أعلم إن أخبرتك أم لا؛ ولكن مدرب الفريق المقابل أصغر إخوتي أمير. الفريق الذي لاعبه صديقك ورفاقه من أبناء الجالية البوسنية، وأخي أمير من كان يحارب على أنفاسه في المخبأ تلك الليلة.

ركضت إلى الباب. أهلاً عمي، لقد أتى الجنود وأخذوا أبي وأمي، وبقينا أنا وزوجتي وأخواي الاثنان. أين زوجتك، ذهبت إلى غرفتي لتحضر معاطفنا، تريد أن تذهب وتستطلع خبر والديها. ليس هناك وقت، خذ كل ما تحتاج إليه بعشر دقائق، سأنتظرك عند الباب بالسيارة. لا نملك كثيرًا من الوقت.

توقف محمد لثوانٍ وهو يضحك وبيده شطيرته:

- هدف رابع، لا أحمل صديقك أي مسؤولية.

- المهم ما الذي حصل بعدها سألت أنا.

- كل ما أعرفه في ذاك الوقت أنهم حجزوا والديَّ مع الكثير من أبناء القرية، خرجت زوجتي فاطمة. إلى أن أخبرها أخيرًا أنه مر عليهما ولم يجد أحدًا بالبيت. فاطمة زوجتي وبنت جيراننا وقريبتي أيضًا. كان أغلب أهل القرية أقرباء فجميعنا نعرف بعضنا ما جعل المصيبة أشد مرارة وأسوأ مصيرًا. دخلنا الصندوق الخلفي لسيارة عمي، ما زالت تحاول أن نذهب إلى منزل والديها ولكن عمي أصر بأن الوضع خطير جدًّا، اكتفى عمي بوضع أخياش البطاطس الفارغة. وبالطريق وبين كومة الأخياش، أستطيع أن أرى النجوم من خلال فتحة صغيرة، الأمل هو ما كنت أراه، لم أكن أخاف عندما كنت صغيرًا مقارنة مع الآن. أعلم بأن عمي كاد عقله أن يذوب من التفكير والخوف، ربما من قلة الخبرة تجعلني أظن بالبشر خيرًا. في ذاك الوقت، أردت أن أصبح رجلاً، ما الرجولة بشكل عام؟! لم أقابل موقفًا كهذا من قبل ولا مسؤولية كهذه، ولو قابلتها بعمر كهذا لفشلت. رحمك الله يا أبي.

أخذ عمي زمام الأمور. توقفنا أمام كوخ عمي، الظلام يسود في المكان، أزال عمي الخياش عن رؤوسنا وبدأنا نخرج رؤوسنا كسرقاط في خطر، لا آثار لأي إضاءة في منزل عمي، دخلنا البيت وأدخل العربة في المستودع لكيلا يراها المارة. عندما خرجنا من المنزل لم يسع أي أحد منا حمل الكثير، فلم يكن معنا الكثير لحمله إلى الداخل. فتح عمي الباب، ونحن نتبعه بحثًا عن الأمان وأنا كومة من المشاعر التي ليس لها تعريف بالنسبة إليّ. فتح عمي باب القبو، ونزل خطوتين وقال، هذا أنا سلطان جئت، وأخرجت امرأة عمي رأسها وبيدها مقلاة من الحديد. لقد خطفت قلبي، حمدًا لله على سلامتكم. انزلوا يا أبنائي لدي رغيف وبعض الحليب، ما زالت فاطمة تبكي ورغيف خبزي كان يمتص من الحليب ما لا يمكنني امتصاصه من الألم في هذه اللحظة.

ذهب عمي لتأمين النوافذ والأبواب للدور العلوي وبقينا نحن بلا مدفأة ولا نستطيع إشعالها. يقول عمي إنه لا يريد أن يتطاير الدخان مع المدخنة، وماذا إذا تطاير الدخان؟ سوف نموت. نحن سنموت في كلتا الحالتين. برد شديد، لم أستطع أن أنام تلك الليلة، أتذكرها وكأنها حدثت أمس، كل شيء يتكرر كما تتكرر فصول السنة؛ ولكن لا فصل يمر على أرضي سوى الشتاء. لا يجعلني البرد أتخيل أي شيء آخر. مع نسمات الصباح، بدأت أشعة الشمس تتسلل إلى القبو، رغم أن عمي حرَص على تغطية جميع الفتحات لكيلا ينتبه أحد أفراد جيوش اليوغسلافي لنا. فتحت عينيّ وإذ بزوجة عمي تعد الفطور، وأخي أمير يشكو من سعال شديد وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، لا يستطيع التوقف ليلة البارحة كلها. اذهب وأحضر بعض البيضات، نطقت زوجة عمي.

حاضر، وخطواتي تتجه نحو الباب. صرخ عمي: انتبه ألاّ يراك أحد وحاول ألاّ تمشي في طريق واحد، وادفن خطواتك، إياك أن يروها. ذهبت سريعًا منحني الظهر، مع بزوغ الشمس، تكاد قدماي لا تحملانني. لن أزيد عليك بالتفاصيل أخاف أن أكون قد أطلت عليك بقصتي.

- لا إطالة. ما الذي تتحدث عنه؟ المباراة لا تشد اهتمامي من الأساس.

في تلك اللحظة أرى صديقي سلطان يرمي جسده بما فيه على الكرة يحاول منع هدف خامس من الدخول. سقط صديقي سلطان، توقفت لدقائق، أرقب إن كان بخير. توقف وكأنه يقول أنا ما زلت هنا، ضحكت وقلت:

- ربما لا نملك النتيجة ولكن نملك الإصرار. أتمنى أنه بخير. تفضل ما الذي كنت تقوله؟

ضحك وقال:

- الإصرار وحده لا يكفي. البشر يعشقون تخليد النتائج أما الدوافع فستنتهي بعد انتهائك. عمومًا في اللحظة التي خرجت فيها علمت بأنه ليس من السهل العودة إلى الوضع السابق، أسئلة كثيرة لدي ولا أجد أي إجابة. عدت وبيدي خمس بيضات وآخر همي سلامتهم، نزلت من الدرج أخذت زوجة عمي البيضات، وقال لي عمي: تعالَ معي أريد التحدث معك.

صعدنا إلى الدور العلوي ليخبرني بأن من الصعب أن يضمن سلامتنا، لا ينوي الجلوس لفترة طويلة في الكوخ، ومن الصعب التنقل إذا كنا مجموعة كبيرة، لقد ذهبت إلى منزل فاطمة قبل أن أحضر إليكم البارحة، ووجدت أباها ملقى على الأرض، مضرّجًا بدمائه؛ لهذا أصررت ألاّ أذهب إلى منزلها. لم يعد لديك شيء هنا، لقد سمعت بأن الكثير يرحل إلى كندا كلاجئين، أنت في مقتبل العمر، اذهب وابنِ لك حياة كريمة وأنا سأعتني بأخويك، وبإمكاننا لاحقًا اللحاق بك. أنا لا أتوقع منك التفهم ولكن صدقني يا ابني، هذا أفضل خياراتك ولو كان أبوك هنا لاتفق معي. أبوك وأمك بخير؛ ولكن كما ترى لا نعلم ما الذي سيحصل بالغد أو حتى الآن، غدًا سآخذك أنت وفاطمة وزوجتي وإخوتك، سنذهب بالعربة إلى «بوغينو» سينزل إخوتك الصغار وزوجتي في بيت أهلها فهم في أمان هناك، لا أستطيع تركهم وحدهم هنا ومن ثم نذهب أنا وأنت وفاطمة إلى «سبلت» كرواتيا. هناك ستستقل القارب إلى كندا. ولماذا تخبرني إذا كنت قد قررت بكل حال؟ أحتاجك أن تكون ثابتًا، فزوجتك وإخوتك يرون بأنك الرجل الآن. ولكن أنا خائف يا عمي. جميعنا خائفون يا ابني؛ ولكن الموت لا يستأذن، المسؤولية لا تنتظر أيضًا، جميعهم يرونك طوق النجاة. وماذا عن إخوتي؟ كيف أرحل وأتركهم؟ اصنع لهم حياة أفضل، هيا بنا للأسفل.

بدأ عمي يحدث زوجته وزوجتي وأخي الصغير بينما أخي أمير ما زال طريح الفراش يسعل، لم تكن ردة فعل زوجة عمي مستغربة، فقد أومأت برأسها وكأنه دليل على الاستجابة أو الموافقة، وكأن معاشرة هذه السنين كلها جعلتها تثق به بحياتها وموتها. نظرت إلى فاطمة وهي تنظر إلى زوجة عمي وظننت أنني وحدي من كان خائفًا، فهي كانت تحاول أن تقتبس ردة الفعل أيضًا. قبل الفجر بثلاث ساعات، لم أنم طوال الليل وأنا عقلي يكاد أن ينفجر من كثرة الأسئلة والسيناريوهات. لا أتمنى أن يطلع علي نهار آخر، حرقت الكثير من السعرات الحرارية بالتفكير وأنا لم أتناول سوى الفطور. قبل الفجر بثلاث ساعات، وبعد أن قرر عقلي الاستسلام لمدة دقائق

وزار النوم جفنيَّ، نخزني عمي، هيا انهض سنرحل بعد ساعة، انهض لنجهز العربة والأمتعة، سنذهب الآن. لقد خرجت لتفقد الشوارع، هي فارغة الآن، هذا الوقت المناسب.

جهزنا السيارة، ورحلنا بعدها بساعة، الأجواء شديده البرودة، ولا أنيس لنا سوى ضوء القمر، والصندوق ضيق جدًّا، بعد ساعتين ومع بزوغ أضواء الفجر الأولى وصلنا إلى مزرعة أنساب عمي، ترجلنا ونزلت زوجة عمي وإخوتي. نزلوا سريعًا، ودعت إخوتي وكأني سأراهم للمرة الأخير، ورفضت فاطمة النزول من العربة وكأنها ترفض من الأساس فكرة الرحيل؛ ولكن لا حلول أخرى وهي تعلم ذلك تمامًا. ركبت السيارة وبدأنا بالتحرك، صرخت زوجة عمي انتظر، توقف عمي سلطان. وناولتني سلة بها كذا رغيف من الخبز، اعتنِ بنفسك وبفاطمة يا بني وأنا أعدك بأن أعتني بأخويك. بدأت العربة بالحركة، وامرأة عمي تصرخ: حفظكم الله يا بُني. لم يرزق الله عمي وزوجته بولد، الأمومة لا تستأذن أيضًا، عوضها الله خيرًا بتعبها على إخوتي.

- وماذا حدث؟ سألت أنا.

- رحلنا إلى الميناء، كانت الأمور مستتبة بشكل ما، وكأنهم جميعًا يستعدون للاستقبال كما فعل والدي قبل شهور، لا يعكس الواقع المخيلة نهائيًّا في هذه الحالة. لم يسكت عمي طوال الطريق، وهو يشعر بأن واجبه الآن أن ينقل لي كل ما يعرفه عن هذه الحياة؛ لا تثق بأي أحد يا بُني، لا تجعل الناس يستغلونك. وصلنا إلى الميناء، توقف عمي واحتضنني احتضان الوداع الأخير. صعدت إلى السفينة أنا وفاطمة والكثير من الوجوه الغريبة. وأنا أشعر بأني قد تخليت عن كل ما أملك من عائلة وأصدقاء وحتى طفولة. هنا كان مفترق الطرق.

قاطع الحوار صديقي سلطان وأمام عينه بقعة سوداء تشرح حاله في تلك المعركة قائلاً:

- مرحبًا صديقي.

- مرحبًا، هل أنت بخير؟ ما الذي حول عينك.

- نعم، مجرد كدمة بسيطة.

- ها أخبرنا، كيف تسير الأمور لديك؟

- ليست بأحسن الأحوال فأنا أعاني وحدي هناك. لقد انتهى الشوط الأول خمسة مقابل لا شيء للفريق المقابل.

أخذ علبة ماء وأمل وعاد إلى فريقه:

- بالتوفيق يا عزيزي. رفعت صوتي له.

- وماذا حدث بالسفينة سألت محمدًا.

- استغرقت السفينة ما يقارب الشهرين، لم أعرف من الوقت سوى النهار والليل، وكلما سألت أحد أفراد الطاقم عن الوقت المتبقي حتى نصل تكون الإجابة أسبوعًا وكأنه رد آلي. وصلنا إلى مطار هالفاكس، الأجواء باردة والجميع يتحدثون بلغة لا أفهمها، استقبلنا رجل كبير بالسن، وبدأ بتعبئة الأوراق وبعدها أودعنا والكثير معنا إلى القطار. استغرق القطار يومين وبدأ الرجل ينادي بصوت عالٍ، وبدأ الناس بالنزول وكانت هذه محطة الوصول، وعند خروجنا من القطار والثلوج تهطل على رؤوس البشر حتى أصبحت بيضاء كرؤوس الجبال، وبعدها بدأت بالبكاء، انفجر كل ما بي، لم أستطع تحمل المزيد. جلست ووضعت يديَّ على رأسي وبدأت أبكي. لا أعلم أين أنا ولا ما الذي حصل بأهلي ولا أتحدث اللغة، وفاطمة تسألني أين نحن؟ جميع الأسئلة في هذه اللحظة تُركت بلا إجابات، إجابة واحدة ستعيد لي الأمل. وفاطمة رأسها تائه بالفضاء طفلة بريئة كانت تظن بأني جميع حلولها، والآن ترى جميع حلولها تنهار.

رفعت رأسي وإذ برجل كبير توجه إلي، وبدأ يتحدث إليّ بالإنجليزي، آنذاك لم أكن أتحدث اللغة فأخذت أقول: بوسنة، بوسنة. حتى صرخ هل أحد يتحدث البوسنية هنا ثم أخذنا إلى مكتب الهجرة. حضر رجل كبير بالسن وكان يتحدث بوسني، اصطحبنا إلى منزله أكرمه الله، ودعمتنا الحكومة الكندية بإعانة شهرية وسكن. اكتشفت في تلك اللحظة أنني كنت في كالجري، شاقة تلك السنوات الأولى، إلى أن درست مهنة اللحام وأصبحت لحامًا، وفتحت ورشة وأنا في العشرين من عمري. أحضرت أخي أمير، ورفض أخي الآخر القدوم واستقر في البوسنة أزوره من سنة لأخرى.

علمت لاحقًا بأن أبي وأمي كانا في مخيم إجباري مع أم فاطمة، وجميعهم لقوا حتفهم في ذلك المكان، تيتّمنا صغارًا بالسن ولكننا كنا كبارًا في المسؤوليات. عمي لم يستأذنه الموت أيضًا، هو أيضًا لحقه بعدها بسنوات بسبب المرض الخبيث. حاولت إقناعه مرارًا وتكرارًا أن يجيء إلى هنا

ولكنه رفض، لن أتخلى عن أرضي في هذه السن، سأموت هنا حتى وإن لم يرغبوا. رزقت بابني الوحيد، قضيت وقتًا كثيرًا بين البيت والعمل أحاول رعايته. توفيت زوجتي، ومرت الأحداث سريعًا بعد وصولي إلى كندا. الأوقات الجميلة تسلب وقتنا كما يسلب الدخان حياتك.

- وما شأن الدخان هنا. سألت أنا.

- وضعني بموعد مع الموت، فأنا رجل ميت يلفظ أنفاسه، أخبرني الأطباء بأنه تبقى لي إن كنت محظوظًا أشهر قليلة.

- أنا آسف. رددت عليه بنبرة تعاطف.

- لا تتأسف، كان خيارًا شخصيًّا. والحياة ستستمر بعدي في كل الحالات. في الحقيقة نسيت الحياة بعد فاطمة. حان وقت رحيلي يا خالد. إلى اللقاء.

ركب دراجته وبدأ يبتعد بالتدريج.

25/4/2011

الفصل الثالث عشر

«يقولون إن كل شيء سيكون بخير، إذا
كانوا جميعًا بخير ما عدا أنا».

الكاتب

(1)

حضر أخي عبد العزيز وقرأ رسالة حمزة ومضمونها: «مرحبًا خالد أتمنى أن تكون بخير، لقد سرني ما قرأته، أتمنى أن نجتمع في يوم في مقهى أو أينما تريد. لقد سرقت القصة فضولي وأريد معرفة المزيد عنها وعنك». لم تكن الرسالة وحدها كفيلة بسرقة اهتمامي.

- هل تريد أن ترد عليه، قال عبد العزيز.

- لا، دعه وشأنه. ربما يعاني من وقت فراغ ويريد الترويح، ليس لديّ وقت لذلك. سأحاول كتابة القليل، أو أقرأ أحد هذه الكتب.

- حسنًا، حسنًا. أنا سأذهب، بالمناسبة لقد قابلت مازنًا بعد صلاة الظهر وأخبرني أنه سيأتي الليلة ويريد أن يعلم ما ردك الليلة.

- نعم أخبره بأنه ليس لدي أي مشكلة، سأنتظره. سأجلس في الغرفة وأخبرني إذا حضر.

خرج أخي وخرج معه تواصلي مع الخارج.

11/11/2012

(2)

أشعلت الشمعة وجلست على المكتب، أحتاج إلى الإحساس، إلى الشعور بالوجود. أخذت أقلب صفحات المذكرة إلى أن سقطت عيناي على قصة زاهر، لا بد أنني كتبتها في كندا، لا أتذكر أيًّا من هذه التفاصيل سأدعكم معها.

قابلت اليوم زاهرًا، ولا أظن بأنه كما يسمى، فقد بان وكأن زهور قلبه كلها قد جفت بل ماتت من شدة العطش. كنت جالسًا في الحديقة كما أفعل بالعادة كل يوم أحد، فإذا كانت الأجواء مشمسة، يصبح الجميع بمزاج جيد. على كرسي ثلاثي جالس وحدي أتأمل البشرية، الكل يعبر من أمامي وكأني مخفي، لا أحد يعيرني أي اهتمام، الأطفال الكلاب وحتى البشر؛ لدرجة أنني ظننت أنهم لا يرونني. من بعيد أرى رجلاً يعرج باتجاهي وضع كل ثقله على عكاز خشبي، لا بد بأنه رفيق عمره. نظرت إليه وسقطت عيناي على عينيه وأرسل لي ابتسامة عرفت بمضمونها بأنه يرغب بمشاركة هذا الكرسي. بدأ يعرج إلى جهتي حتى توقف أمامي.

- عفوًا، هل تمانع أن أجلس بجانبك.

- لا. المقعد فارغ، كله لك.

جلس على الكرسي، والتفت علي وقال:

- مرحبًا، أنا زاهر. ما اسمك.

فرص كهذه لممارسة اللغة لا تنبت على أغصان الأشجار؛ بل تثمر من ناس يبحثون عمن يرد لهم الصوت أو يشعرهم بالوجود.

- أنا عبد الرحمن.

مددت يدي له، ابتسم وقال:

- هل أنت من هنا، أم وجدت نفسك هنا بعد أن ضاقت بك الظروف.

- أنا هنا للدراسة، أنا من المملكة العربية السعودية، أدرس اللغة الإنجليزية الآن في جامعة يورك.

- جميل جدًّا، يبدو عليك الصغر، الجامعة ليست للعلم، الجامعة خبرة. عرف البشر الأمية بنظام تعليمهم، والحقيقة أن العلم مخزون فكري وثقافي وليس مجرد وثيقة. حاول الاستفادة منها بقدر المستطاع، لا تجعل منالك الشهادة فقط.

اكتفيت أنا بالسماع أو هز الرأس، وتجربة الكلمات الجديدة التي تعلمتها في المعهد.

- لم تخبرني من أين أنت، سألته.

وضح لي من ثقل لسانه وتفاصيل وجهه بأن لغته الأم ليست الإنجليزية.

- أنا من إيران، بلاد الفرس. ما لك قد ارتسمت علامات التعجب على وجهك؟

- لقد سمعت وقرأت الكثير عنكم.

- بتاريخنا بشكل عام، منها ما أحب وتكره أنت، ومنها ما يعجبك ويكسرني.

تبسمت وقلت:

- دع الماضي للماضي.

ضحك وقال:

- التاريخ لا يتغير، وأنا وصلت إلى المرحلة التي كتب فيها أغلب تاريخي.

- أتمنى لك عمرًا طويلاً يا عم.

تبسم لي وتعابير وجهه تقول إنه يتحدث بقناعة تامة:

- أخذت حقي من الحياة، أنتظر الله أن يأخذ أمانته.

- لا تأخذك الأفكار السوداء، لا تزال شابًا.

- ولكن ما الذي أريده في حياتي بعد سوسن، وردة حياتي.

- سوسن وزاهر لا بد أنه كان هنالك حقل زهور.

تبسمت أنا من باب تلطيف الجو. ورد هو بابتسامه حزينة.

- لقد رحلت وتركتني قبل خمس سنوات. أخذها السرطان وتركني هنا، لا أعلم إن كان فتك بها هي أم أنا، فقد أموت أنا بالسنة ثلاثمائة وستين مرة.

- ومن سوسن هذه يا عم؟ ابنتك؟

- لم يرزقني الله بنات، وإلا كانت عوضتني جزءًا من حب أمها. سوسن هذه زوجتي، يقولون ستجد شخصًا وتحبه، إلى أن تتعلم كيف تكره. لم أنتهِ من حبها لأتعلم كرهها، الآن أرى أبنائي نهاية كل أسبوع وبعضًا من أحفادهم. المشاعر هي ما نتذكرها وليس التفاصيل، فالذكرى الجميلة ستصبح مؤلمة في يوم من الأيام.

- من هي سوسن يا عم؟

عدل جلسته وكأنه يبحث عن مزيد من الراحة.

- قدمي اليمنى تتعبني مؤخرًا إذا مشيت. آه سوسن، قابلتها في أثناء فترتي الجامعية، كنت في طهران في تلك الحقبة، فقد نلت شهادتي بالهندسة المدنية من جامعة طهران، أنا من الشمال الإيراني، وأول شخص يغادر القرية ليكمل تعليمه.

- وأنا بعد، ولكني من شمال المملكة. وابتسمت.

- ممكن حب المغامرة ما جعلنا ننتهي على هذا الكرسي. وضحك.

قاطع السعال الثقيل ضحكه، ظننت أنه سيموت، أخرج الفولتارين واستنشق منه ثلاث بخات وكأنه سيلفظ أنفاسه الأخيرة. سكت لدقيقة.

- الآن أفضل؛ عفوًا، ولكن كتمت حساسية الربيع فأثارت الربو لديّ. وُلدت لأب مزارع وربة منزل، كل أمنياتهما في الحياة ألاّ ينقصنا شيء. جدي أورث أبي وعمّيّ الاثنين أرضًا لا بأس بها في شمال إيران، لم تناسب عمّيّ الزراعة فهما لم يرثاها من جدي؛ ولكنها كانت تحب أبي. هو أكبر أبناء جدي الذي اعتمد عليه بشكل كبير. جميعهم تعلموا ذاتيًّا كون جدي كان منشغلاً بالزراعة وقوتهم وملبسهم. كان التعليم بسيطًا جدًّا، أكمل عمّاي تعليمهما في وقت لاحق، هذا ما جعلهما ينتقلان إلى طهران، كان الجميع يبحث عن رحلة إلى طهران في ذلك الوقت، لحقتهم أنا بسنوات لاحقة. امتهن أبي زراعة الزعفران، أجود أنواع الزعفران في العالم فقد جعله أسلوب حياة، هذا ما تربى عليه منذ نعومة أظافره وهذا ما شب وشاب عليه. رباني أبي تمامًا كما فعل جدي مع بعض التغييرات، كان حريصًا جدًّا على التعليم رغم أنه لم يتعلم، كنت دائمًا أتساءل في صغري عن السبب، ولكن لم أكن أجرؤ على السؤال. لم يتقبل الكثير من الأسئلة؛ أظن أنه قد ورثها من جدي أيضًا. في الصف الأول ثانوي، ونحن على مائدة الغداء كانت أمي تطبخ الكوبيده الإيراني، ألذ ما يمكنك أكله في ذلك الجزء من العالم. أكل الأم أفضل أكل في العالم وليس في جزء منه.

- من الممكن أننا نرثه أيضًا جينيًّا.

- ضحك وقال نعم، اشتقت لتلك الأيام. ما الذي كنت أتحدث عنه أنا؟ بدأت الذاكرة بالتآكل في هذه المرحلة العمرية وبدأت تفيض مشاعري مع كل ذاكرة أستطيع الحصول عليها. في فترة الجامعة كان الأصدقاء يعودون إلى ذاكرتي في الخصومات؛ ولكن أظن بأنك تأتي بكل شيء وتتقنه ثم تعيده إلى الوهاب.

- هل أنت مسلم يا عم؟

- لا تريد الحديث عن السياسة والتاريخ، ولكنك تريد أن تعرف إن كنت مسلمًا. سأل وهو يضحك. أنا مؤمن بالله وبوجوده ولكني لا أفكر بالأديان كثيرًا. أنا أعلم بأني لست أكبر القوات على هذه الأرض، فما بالك بهذه المجرة كلها وعلم الفضاء.

- وما الذي تغير بالصف الأول ثانوي؟

- كل شيء تغير، معاملة أبي وحديثه معي، وكأنه الإعلان الرسمي لدخولي مرحلة الرجولة، وكان الإعلان عن طريق رب هذه المنزل، جلست على الطاولة وبدأت آكل وعينا أبي لا تفارقانني. كيف حالك اليوم يا نيما؟ رفعت رأسي بتعجب، فنحن لا نتبادل الكثير من الأحاديث على الطاولة خصوصًا بوجود أبي، فالغداء يأتي قبل قيلولة الظهر والتعب يكاد أن يصرخ من عينيه. أنا بخير. كيف مدرستك؟ هل كل شيء على ما يرام؟ الدرجات وكل شيء. كم بقي لك لتتخرج، ثلاث سنوات مع هذه السنة. لقد كبرت يا نيما، الأيام سريعة. تبسم أبي وكأنه قد حان الوقت للاعتماد على نفسي؛ ولكني أعلم بأنه بداخله يرى أن هذا الرجل لن يكبر أبدًا ولو أنجب رجالاً ورجالاً سيظل وكأنه طفله الوحيد. تمامًا كذكر بطريق الإمبراطور عندما تخرج الإناث في أوقات الصيد. يظل يرعى الفرخ إلى أن تعود أمه. وبعد شهرين بالتمام، وبدقة توقيت مذهلة، تظهر الأمهات بعد موسم صيد لتعين بإطعام الفراخ. اللحظة التي تصل فيها الأم، وكلها شوق لرؤية جنينها. يبدأ الذكر بدفعها فهو يرفض التفريط أو مشاركة حب الفرخ بعد أشهر من الاهتمام به. وبعد دقائق يبتعد الذكر لتطعم الأم فرخها. ذكر البطريق يمارس الأمومة أيضًا.

نظرت إليه بتعجب. خالد يحب البطاريق أيضًا. لا بد أن الأجواء الباردة هنا جعلتنا كالبطاريق، تابع قائلاً:

- بعد أن انتهى أبي من غدائه وقال لأمي أحضري لي الشاهي في غرفة الجلوس وأنت يا نيما تعالَ أريد الحديث معك في الصالة لدقائق بعد الانتهاء من الأكل. بالعادة كلمات كهذه كفيلة بأن تجعلني أفقد وعيي وتجعل قلبي يتحرك من مكانه وكأن القفص الصدري كله لا يسعه؛ ولكن يبدو اليوم غريبًا. وضعت الشوكة والسكين وتبعته إلى غرفة الجلوس فلم يعد الأكل همي الآن. جلس أبي وجلست أمامه تبسم وقال يا ابني لقد بلغت وأصبحت رجلاً وقد حان الآن الوقت الذي أستعرض فيه خياراتك من وجهة نظري. لم يستعرضها جدك لي؛ ولكن هو كذلك فقد شيئًا من جدي وأضاف من عنده، وها أنا أحاول أن أعمل بما عمل وأضعك في مكان أفضل مني، فأنا أعرف الزراعة وأعرف حبي لك. وأعرف أيضًا بأن المستقبل بالتعليم وأنا فاتني التعليم، هل فكرت من قبل بالجامعة؟ أن تدرس كما فعل عمّاك. نعم يا أبي تراودني الفكرة من حين لآخر؛ ولكن كما تعرف لا خيارات كثيرة لدي هنا ولا أعرف ما الذي أريده. عمّاك في طهران بإمكانهما المساعدة. اجتهد الآن، ذاكر دروسك واحصل على أعلى معدل، وأنا سأتكفل بكل شيء بعدها، بكل تعليمك. ليس لدي أي مانع يا أبي. سأرسلك عند عمك فرهاد في هذا الصيف، اذهب هناك واختبر حياة المدينة، الفرصة التي كان

يعرضها لي أبي ثمينة جدًّا، للخروج إلى العالم الخارجي، الاستطلاع والحصول على بعض الإجابات.

أنا منذ الصغر أواجه مشكلة الفراغ. الفراغ بالوقت لم يكن هناك الكثير للعمل، بما يعني أن المدرسة كانت متنفسي الوحيد، وأيضًا فراغ الرأس، كنت أشعر بأن هناك غيمة كبيرة جدًّا في رأسي، لا أستطيع التركيز، أفكر في شيء أو لا شيء في كل الأحيان. الآن أعرف بأنه ضعف بالتركيز، كنت دائمًا ما أردد لأمي بأني أشعر بأن رأسي في داخله هواء. وهي دائمًا تضحك. كنت أسرح في الأوقات كلها، الفصل والبيت وأسوأها على طاولة الغداء فهذا لا يعجب أبي أبدًا، دائمًا ما يسألني ما الذي تفكر فيه وكأنه يخاف بأن الأفكار ستخطفني. كل شيء حولي كان بحدود، البستان له حدود، منزلنا له حدود، حدود القرية صغيرة جدًّا حتى لو استطعت أن تدور حولها كلها بربع ساعة ركضًا على الأقدام، فكنت أسافر وأرحل بالأفكار. كنا نسمع عن طهران والقصص بالمدرسة وأطفال الأغنياء التي كانت وجهتهم الصيفية، وأنا وإخوتي مصافنا بالبستان كان في بركة أربعة أمتار في أربعة أمتار. نجلس ونقضي فيها أغلب اليوم.

- وماذا عن سوسن يا عم؟

- آه سوسن، لقد نسيت سوسن، وهو يضحك. ألم أقل لك رأسي فيه هواء. رحمك الله يا أمي وتبسم. في ذاك الوقت كانت طهران تمر بمرحلة تفريق اجتماعي خصوصًا أكاديمي وصحي. من أنت ومن أين أتيت، تصنع الكثير من الفارق، ولكن من حسن حظي بأن عمي فرهاد كان قد قطع طريقًا طويلاً في هذه المدينة إلى أن أصبح مدرسًا للفلسفة في جامعة طهران. يبدو أن التعليم الذاتي جعل فكره يسرح بعيدًا، لم ينجب عمي فرهاد أبناء، ولعل علاقة أبي معه كانت أكثر من كونها أخوة؛ بل ربما كانت علاقة أبوة خصوصًا مع الفارق العمري بينهما، سبع سنوات، وطريقة تفكير أبي. عاملني عمي فرهاد كابنه أيضًا، فأخذ يشرح لي ويعلمني. بعد وصولي إلى طهران بأسبوع في ذاك الصيف، تعرفت إلى صديق يعيش في الحي نفسه.

- هل تعلم يا عم ما المضحك؟

تبسم وقال:

- ماذا؟

وكأنه مستعد للضحك لأي شيء سيخرج من فمي تلك اللحظة.

- جدي اسمه أيضًا فرهود وهو عربي الأب والجد.

ضحك وقال:

- مخيلة الإنسان تصل إلى حدود التشابه في بعض الأحيان، حتى وإن لم يكن الإلهام من المصدر نفسه.

لم أفهم ما يقول ولكن علمت بأنه لم يكن مضحكًا بالشكل المطلوب. ابتسمت وقلت:

- وماذا حصل بعدها؟

- وجدته في الحديقة بالقرب من بيت عمي، لم يكن في المنزل سواي بعد أن يرحل عمي وزوجته إلى أعمالهما. أخرج أنا وأستكشف المكان من حولي. لم تكن المشاهد كما تخيلت، كانت أكبر كثيرًا من مخيلتي. كانت طهران تعج بالحياة، جلست على مقعد بالحديقة.

- أجل، تصنع الأصدقاء على كراسي الحدائق؟

- كان بعمري هو ولم يكن بجانبي؛ ولكن مقاعد الحدائق هي التي تجذبني وتجذب الناس. كان أمامي يبحث على الأرض بجانب المقاعد وكأنه فقد قطع ألماس خام حتى اقترب من كرسيي وقال: سلام. تبسمت وأجبته: سلام. رأيت الابتسامة ترتسم بقوة على معالم وجهه وكأنه وجد ما كان يبحث عنه. والتقط نصف سيجارة بجانب المقعد، وأخرج أعواد ثقاب من مخبئه وأشعل السيجارة. كان خارجًا عن القانون بالنسبة لي، فلم أجرؤ بحياتي على التدخين. سألني: يبدو أنك جديد هنا فأنا أعرف كل من يعيش هنا. من أنت؟ أنا نيما. هل انتقلتم للتو؟ لا، أنا أعيش مع عمي، يعيش في نهاية الشارع للتو انتقلت من الشمال. لا أعرفه، هل لديه أبناء؟ فأنا أعرف الأغلب من المدرسة أو هنا بالشارع. لا، ليس لديه أبناء.

أخذ نفسًا طويلاً من السيجارة التي أوشكت على الانتهاء، ثم نظر إليّ وقال: هل تريد ما تبقى؟ لا. أنا لا أدخن، فهو سم قاتل. أحب العيش بخطر، الخوف لن يجعلك تعيش أبدًا. أبي كان يدخن من عمري ولا زال يدخن الآن بعد 25 سنة وهو أصح من الفيل. ضحكت وقلت لا تقل هكذا

عن والدك. هل تنتظر أحدًا أم نذهب للاستكشاف؟ لا. أنا غير مشغول الآن، أنا أراش على فكرة. وأنا نيما. بدأ يمشي بلا وجهة ولا هدف. نمر على أولاد يلعبون الكرة ويؤشر إليهم بيده فترتفع الأيادي لرد التحية. لا بد أنك معروف هنا؟ كسرت الصمت؛ نعم ولكن لا أحد يريد الجلوس معي، فجميعهم يحذرون أولادهم مني. أنا صديق السوء الذي يحذر الوالدان منه. ضحكت. لم أكن أعلم بأنها كانت بداية لعلاقة امتدت سنوات وأجيال. أراش، سنوات وأجيالاً وعقودًا عدت. وأنا ما زلت أزور مقاعد الحدائق. وضحكنا...

- وماذا عن سوسن؟

- آه سوسن، في نهاية ذاك اليوم تواعدت أنا وأراش في الحديقة ولكن في وقت أبكر. أراش وعدني بأن يريني طهران من زاويته، طلب مني أن أحضر قنينة ماء لأن الرحلة ستكون طويلة. نمت مبكرًا وخرجت مبكرًا قبل الموعد بساعة أنتظر أراش على المقعد نفسه، قبل الموعد بنصف ساعة. أقبل أراش من بعيد وهو يتسحب بتثاقل لما وقعت عيناه علي رفع يده وأشار، واتجه إلي، وأخذ دورته المعتادة للبحث عن بقايا سيجارة، لعله كان يحرق همًّا لم أكن أعرفه، أو يهرب من قلق قاتم؛ ولكن علمني أبي ألاّ أحكم على الناس. أخذته بطيب نية فأنا مؤمن بأن البشر يغلبهم الخير وإن سيطر الشر على بعضٍ منهم، فسيسيطر بالاستسلام أو المرض أو القرارات السيئة.

اليوم يبدو أن أراش سعيد حقًّا فقد وجد سيجارتين أشبه بالجديدة، وضع واحدة بجيبه وأشعل الأخرى وقال: لا بد أنه كان موعدًا سريعًا ولم ينجح، وهو يضحك. ما الذي تتحدث عنه؟ يتردد ولد غريب إلى هنا في بعض الليالي، هو وفتاة أظن بأنها عشيقته. وكيف عرفت؟ ببحثي عن السجائر، كل أسبوع وما شابه أجد سيجارتين على الكرسي ذلك، واحدة مطبوعة عليها في الغالب بأحمر الشفاه والأخرى عادية. بعد كم مرة قررت أن أجلس هنا وأراقب، لا بد أن للصدفة أسبابًا. ووجدتهما هنا، فالكرسي غير مكشوف لكل الأماكن وليس واضحًا للمارة خصوصًا بالليل. الأسبوع الماضي بدأ يقبلها وأنا كدت أن أفقد هدوئي؛ ولكن لا بد بأنهما لم يكملا ليلتهما البارحة. رفع رأسه وقال: شكرًا على السجائر؛ ولكن أتمنى أن يتصالحا فهذه السجائر لن تسقط من السماء، وبدأ يضحك. هل بدأنا الرحلة؟ هيا نمشِ.

كان متبقيًا آخر سيجارته التي على غير عادته أخذها معه للشارع. بالعادة ينتهي منها في الحديقة ويبدأ يومه برحلات أخرى. أوه، شيفا.. شيفا رمى سيجارته وكأن ماءً باردًا قد انصب للتو

على جسده في شتاء سيبيري صاقع. وهذه المرة الأولى التي رأيت فيها سوسن، كانت كالوردة الجميلة، ومختلفة. ربما هذا ما جعلني أقف مع أراش وهو يحاول أن يلفت انتباه شيفا بابتسامات عشوائية يرسلها هنا وهناك وأنا لا تكاد عيناي تفارقان سوسن.

من هذه؟ سألت أراش بعدما عادت سوسن مع شيفا. أيهما تقصد؟ من يلبس الفستان العنابي، والنظارة العنابية. هل هي من هنا؟ ضحك أراش وقال: ما لك وكأنك بدأت تزرع جذورك هنا، هذه ابنة تاجر يعيش في الحارة المقابلة، لا أعرف الكثير عنها ولكنها قريبة جدًّا من شيفا، صديقتها من الطفولة. شيفا ومن شيفا؟ الفتاة الأخرى، أكاد أجن يا نيما. هذه الفتاة تسحرني كلما أراها، ألم تحاول أن تحدثها أو حتى تقرب منها وتعرف بنفسك، سألت أنا بكل عفوية. وكأني خبير بالعلاقات وأنا لم أتحدث مع فتاة أجنبية في حياتي. فمن حيث أتيت أنا فالجميع يعرف الجميع. والجميع لا يرغب في المختلف أو التغيير ولكن لعلّ المختلف أجمل. قال أراش: أكلمها هل فقدت عقلك أنت، انظر كيف نظرتها إليّ وكأنّي قتلت أحد إخوانها. ألا تعلم أن الناس يعبرون عن الإعجاب بأشكال مختلفة. هذه أول مرة أرى فيها سوسن، وسرقت تفكيري لذلك اليوم كله. إحساس غريب لم أتعرف إليه من قبل، الشيء الوحيد الذي كنت متأكدًا منه، أنه يجب أن أراها مرة أخرى. من الممكن أن أجد لهذا الشعور تفسيرًا قلت لنفسي.

صباح جديد وموعد مع أراش، خرجت مبكرًا هذا اليوم وإذا بأراش قد سبقني على الكرسي وهو يبتسم. مرحبًا، حصلت على سيجارتين اليوم. لا تقل لي قد عادت المياه لمجاريها؟! نعم، نعم. أخذهما الحديث البارحة لعله كان نقاش الود والتسامح، لم يتبقَّ من السجائر سوى القليل. وسكت قليلاً ثم انفجر؛ انظر حتى ما الذي نسياه على الكرسي، الباكيت كله، يوجد هنا ست سجائر جديدة. لهذا أنت هنا مبكر إذًا! وأخذت أضحك. نعم نعم، أنتظر شيفا أيضًا، هذا وقت خروجها. فلنذهب إلى الشارع، الرؤية من هنا غير واضحة.

في الحديقة كانت في حي سكني ولكنها محاطة بأربعة جدران، وبوابة واحدة بعرض ثلاثة أمتارٍ تقريبًا. يوجد بها أربعة كراسي، ويظهر على الحديقة بأنها ليست مزارًا معلومًا فهي مهملة؛ لهذا قرر أراش أن يجعلها مقرًّا رسميًّا له ولعملياته والذي شاركت منها جزءًا غير بسيط. جلسنا على الدرجة الأولى من الدرجات الثلاث المؤدية إلى الحديقة. قل لي يا نيما، ما الذي تريده عندما تكبر؟ ألا يخطر هذا السؤال على بالك؟ لا أعلم لأكون صادقًا معك، حدثني أبي عن الجامعة، لهذا أنا

هنا في طهران؛ لكن لا أعرف ما أريده فعليًّا. لا أشعر بأني جربت الكثير حتى هذه اللحظة. لا أظن أني أعرف من أنا حتى الآن، ولكني أتبع الإحساس وأميل للكتابة ولكن أعلم بأنها ليست مستقبلي.

- هل تكتب يا عم؟

- نعم نعم أكتب في الغالب شعرًا، كان أبي شاعرًا أيضًا وجدتي، نشأت على حب جلال الدين الرومي، واكتشفت بأن أراش يحبه أيضًا. كان يسرق من مكتبة أبيه ويعيرني وأنا أقضي بعض الأوقات في الحديقة للقراءة. لم أكن أفهم ما كان جلال يحاول أن ينظمه، ولكن شعرت بالشعر وحاولت نظمه في كِبري؛ ولكن أنا مهندس، الجمال بالنسبة لي تغير. الكتابة شغف ولكنها ليس لي.

- حسنًا وماذا حصل بعدها؟

- طلب مني أراش أن أتريث، التجربة هي ما تجعلنا نعرف من نحن، من نكون وأين نريد أن نكون. وماذا تريد أن تصبح أنت؟ أنا سأغير العالم، في البداية واقعي ومن ثم البشرية. وكيف ستغير العالم؟ سأدرس السياسة؟ الشاه محمد رضا بدأ خطوة "الثقافة العظمى" سيحدثون نقلة بالتعليم والمجالات الأخرى. ها هي شيفا، أتُراها قلت أنا. توقف وكأنه يراها للمرة الأولى، من حسن حظي أنا بأنه كان لدي ما يسرق انتباهي. اليوم أحلى وأبهى وأجمل، كوردة في بستان تتغير كل يوم ويتغير لونها ويبقى الجمال صفتها الأساسية. بدأ قلبي يحاول أن يتحرك من مكانه، ولكن ليس على صوت أبي، بل من عيني سوسن، كبيرين جدًّا، ويحدّدهما السواد، تكاد الرموش أن تدثرني وتدفئني، لم أر جمالاً كذلك حتى تلك اللحظة. التفتت علي ذلك اليوم وابتسمت ابتسامة صفراء لا أعلم هل هي تكرهني كما تكره شيفا أراش، أم أنها استلطفتني كما أعجبت بها. هل رأت كيف تنظر إليّ. نعم، أظنها تكرهك. ما الذي فعلته بها؟ لا أعلم، ولكنني سأظل أنتظرها حتى تحبني. ضحكت وقلت: هيا بنا نبدأ اليوم. هيا، هيا. نذهب معًا ونشتري آيس كريم الزعفران والفستق، ونجوب الأرض فسادًا.

سكت لثوانٍ، بدأ زاهر يتأمل الحديقة وكأنها مسقط رأسه. وكأنها تختصر حياته كلها بدايتها ونهايتها. وكأنه للتو استوعب بأن الحياة لم تعد كما كانت. عاد ليكسر الصمت وقال:

- تكررت وقفاتي وانتظاري لسوسن، مع أراش وبدونه. بدأت أقضي جزءًا كبيرًا من يومي مع أراش الذي بدوره جعل عمي يحدثني عن مصلحتي وعن هذا الولد السيئ. أخبرته إن كان يثق بي فليثق بخياراتي، لم يمانع وقال أنا أثق بك يا نيما فلا تسبب لي المشاكل. في يوم من الأيام وأنا

أقف بانتظار سوسن، أو أراش الذي انشغل في تلك الأيام مع أبيه الذي يملك مقصبة لحوم وقرر أن يوظف ابنه معه بالصيف، ليحد من الشكاوى ويزيد الأيادي العاملة. طلب مني أراش أن أشاركه ولكني رفضت فأنا لا أحب اللحوم وهذه إجازة سأستمتع بها. الأجمل أن أراش كان مسؤولاً عن الحسابات؛ فأصبحت ميزانيتنا لا بأس بها كونه يستعير بعض المال من فترة لفترة بدون علم والده. كان أراش ذكيًّا؛ ولكن أتوقع أن والده كان حازمًا معه بعض الشيء، نعم أبي كان حازمًا أيضًا ولكنه لم يمد يده عليّ من قبل.

المهم في ذلك اليوم وأنا جالس فاقدًا للأمل على درجات الحديقة وإذ بي أرى سوسن من بعيد تمشي بخطوات هادئة، لا بد أنها ذاهبة إلى منزل شيفا. وقفت أراقبها ولكنها غيرت اتجاهها وأخذت تمشي باتجاهي هذه المرة. توجهت إلي ووقفت أمام درجات الحديقة وقالت: سلام، من أنت ولماذا تلاحقني؟ توقفت وقلت بتلعثم أنا نيما، أنا لست من هنا. لم ألحقك، أنا أجلس هنا وأنتِ تمرين أمامي، أليس لديك أي طريق أخرى إلى منزل شيفا؟ بانت وكأنها مصدومة، ومن أخبرك أني سأذهب إلى بيت شيفا. لا يهم، ما اسمك؟ سألتها، ولم تتردد بالرد اسمي سوسن. ابتسمت وقالت: حسنًا نيما يوم سعيد، ابحث عن مكان آخر للجلوس به، أو عن عمل كصاحبك أراش وهي تتمتم راحلة. وكيف عرفت بأن أراش يعمل؟ لا بد بأن شيفا مهتمة.

تركت ما بيدي وأخذت أركض إلى الجزار، وأرى وجه أراش من خلف عجلٍ معلقٍ على زجاجة العرض، وأبوه خلفه. لا أريد أن يراني والده فهو شخص عصبي بالفطرة، يصرخ لكي يعبر عن مشاعره، انتظرت لدقائق وحين اختفى بدأت أضرب على الزجاج خفيفًا حتى انتبه وخرج. ما بك ما الذي دعاك للحضور هنا. شرحت له القصة كلها وهو بدوره فقد عقله أيضًا. شباب بسن السادسة عشرة يتعرفون إلى الحب لأول مرة. لا يمكن أن تشرح كمية الإندروفين التي تجري بعروقي بهذه الدقيقة. يجب أن أكلمها غدًا، الآن يجب أن أذهب سأراك غدًا في الوقت نفسه، غدًا سنغير هذا الواقع. حملت نفسي إلى المنزل وما زال عقلي مشغولاً بالتفكير بها. تناولت عشائي وجسدي يجلس بجانب عمي وأمام زوجته ولكن عقلي على بعد شارعين من هنا، عقلي كان مع سوسن. لم يمانع عمي كوني أسرح كثيرًا، بالعكس فقد ذكر مرة بأنه يحب التفكير. قال لي يومًا. بشكل عام، نحن مختلفون. ورثنا جينات مختلفة، ونشأنا في بيئات مختلفة. لا أتوقع منك ردة فعل مشابهة في كل فعل يحدث، ولكنك لن تحتاج إلى التركيز يا بُني، تفكر فالتفكير يجلب التنوير.

وجه زاهر الذي لا أظن بأنه تعود على التشكل بالمشاعر منذ فترة طويلة، امتزجت به المشاعر كلها وكأنها ألوان زيتية ستطبع على لوحة فنية. اللوحةُ هنا وجهُه.

- لم أفهم ما الذي كان يحاول الوصول إليه ولكني علمت بأنه لا يمانعه. تصبح على خير، أنا سأذهب إلى النوم، تصبح على الخير نيما. مع بداية الصباح، بدأت أشعة الشمس تتسلل إلى غرفتي، وكأنها هي الأخرى تحاول أن توقظني: هيا قد حان اليوم الموعود. إذا أردت أن أرى سوسن اليوم لا بد أن أكون هناك مبكرًا، لا تعلم فمن الممكن أن تحضر مبكرة. لبست كل ما وقعت عيناي عليه وجربت الكثير حتى اخترت خياري الأول. لا أملك الكثير من الملابس فنحن نأتي من طبقة أقل من المتوسطة؛ ولكن عمي قد اشترى لي قميصًا مزينًا بالورود في أول أسبوع لي هنا. أظن أنه من المناسب أن ألبس الورود في حضرة السوسن.

خرجت من البيت ثم دخلت الحديقة وكنت حينها وحدي، توجهت إلى الكرسي المقابل فوجدت السيجارتين شبه جديدتين، أخذتهما وتوجهت إلى مقعدي. بعد ما يقارب نصف ساعة دخل أراش الحديقة ممسكًا بوردتين، توجه إلى الكرسي وبحث ثم توجه إليّ وهو متشائم. كان أراش يرتدي قميصًا شديد الصفرة وهو ملامحه سمراء بعض الشيء كان أشبه بزهرة عباد الشمس؛ ولكنها قد ذبلت من قلة الأكسجين ومن السجائر الناقصة. لا بد أنهما افترقا فليس هناك أي سجائر. تفضل هذه الوردة قطفتها في طريقي، واحدة لي وواحدة لك. البنات يعشقن الورد والاهتمام. ضحكت وقلت: الاهتمام، هذا الوقوف هنا قد فعل مفعوله إذًا. ضحك وقال: الفراغ ما جعلني أقف هنا، القدر ما جعلها تمر أمامي، أخرجت السجائر وقلت: هل كنت تبحث عن هذه. تبادل مصالح إذًا، هل تريد واحدة؟ لا، كلها لك أريد وردة فقط والقليل من الاهتمام وبدأت أضحك.

مشينا. لا بد أنه يبحث عن الشمس، جلس على الدرجة الأولى وبدأ يخبرني عن قصص المحل وما الذي يواجه. لدقائق وأنا ممسك بوردتي التي أوشكت على الموت بعد أن اجتثها أراش من حديقة مجاورة. أرى سوسن من بعيد وكأن الثلوج قد ذابت وأطل الربيع من جديد. بدأت خطواتي تتجه نحوها وأنا أبتسم، بدأت دقات قلبي تركض وأنا لا أستطيع التركيز، الدم يفور والعرق يتصبب. توقفت عندها وقلت: أهلاً. وأرى أراش قد بدأ محاولته هو الآخر. كيف حالك اليوم، أجابت بابتسامة: ما زلت تجلس هنا ها. ضحك أراش، هذا المقر الرئيسُ لنا، نحرسه يوميًّا بالتناوب. ضحكا

وتسابقت خطواتهما للرحيل. هل تظن لو زرعت هذه الوردة ستعيش من جديد، لا. لا أظن ولكن هل رأيتهما وهما يضحكان.

قاطعته وأنا أضحك:

- ذاكرتك جيدة يا عم!

- لا، صدقني. لقد بدأت بالتآكل، ولكن لماذا تردد عم! ماذا تقصد؟

- عم من باب الاحترام لفارق السن. أنت بالفعل تذكرني بابن أخي.

ضحكت وقلت:

- لي الشرف يا عم. وماذا عن سوسن!

- آه، سوسن. أمضيت ذلك الصيف كله في الحديقة نحن الأربعة. وكنت أحضر كل صيف بعده، أعد الأيام والتواريخ ونقضي الصيف في الحديقة وفي رحلات حول طهران نحن الأربعة. لقد كنت أحلم منذ صغري وظهرت هي لي وكونت لي دافعًا، هو الإصرار. عدت بعدها إلى جامعة طهران وتزوجنا في سنتي الثانية من الجامعة، بعد تخرجي بشهادة الهندسة المدنية وتخرجها بأدب اللغة الفرنسية، ارتحلنا إلى أمريكا كلاجئين. بعد سنتين وقعت ثورة الخميني سنة ثمانية وسبعين. أخبرتنا الحكومة الأمريكية بأن علينا مغادرة الدولة بأسرع وقت ممكن، لم تكن العودة إلى إيران خيارًا في ذلك الوقت، نقلت ما أستطيع نقله من المنزل وركبت السيارة أنا وسوسن وابني أراش الذي بلغ سنة من عمره في ذلك الوقت. توجهنا إلى الحدود الكندية نياجرا فولس بالتحديد وقدمنا طلب لجوء، ومن حسن الحظ بأنه كان لدي ملف لمدة سنتين بسبب إصرار أراش أن أنتقل معه. كنت أنا وأراش لا نستطيع الفراق كجلال الدين الرومي ورفيقه شمس. منحنا حق الدخول واستقررنا هنا. لسنوات وسنوات ولكن أتذكر في أول سنة حضرت هنا، وفي ذكرى زواجنا أتيت أنا وسوسن إلى هنا ووعدتها على هذا الكرسي أن أقضي كل عيد زواج هنا. دورة واحدة على هذه الحديقة. الربيع دائمًا ما يذكرني بها.

- متى ماتت يا عم؟

- قبل خمس سنوات، لم أدخل منزلي القديم من بعدها. انتقلت للعيش في شقة بالقرب من هنا، أنتظر أن يكون حضوري خفيفًا في هذه الحياة، أيامي معدودة. أراك لاحقًا يا ابني.

استند إلى عكازه وارتحل وذهب ليكمل وعده.

5/5/2011

الفصل الرابع عشر

«في كل رواية قصة حب، هذه نسختي منها».

الكاتب

(1)

قد مرت فترة منذ أن لمس القلم هذه الأوراق، لا أحس بالرغبة في الكتابة بعد اليوم. بعض الملذات تنسيك الملذات كلها. عندما بدأت بالكتابة لم أر لماذا كان البشر يسرفون في وصف الحب، وكأن جميع المشاعر لا تصدر من المصدر نفسه. الحزن ما يجعل للفرح معنى، والاشتياق يجعل الحب ينتفض في الجسد كله من أخمص القدم إلى أعلى الشعر. البكاء يجعل للضحك معنى. الفقدان يجعل للحضور معنى، الرحيل يجعل للبقاء معنى. والوحدانية تجعل من الحب معنى؛ ولكن السعادة عُرفت بشكل، والحب أيضًا عرف بشكل، ونحن نعيش في هذه الأشكال. من الكتب التي جعلت للحب وسيلة لبيع الأوراق، أو حتى إشباع المحتوى والتطرف بما يسمى الإشباع العاطفي كمن يقتل البشرية أو ينهي الحياة من أجل حبيب رحل ولم يعد. الخليط من هذه المشاعر هو ما يجعل لكل شيء معنى، وإلا فالحياة لا تعني أي شيء.

لم أعد أرغب في الكتابة لأن قلبي مال لسارة، شاء القدر أن تكون معي في الفصل نفسه. في البداية وفي أول يوم لم أتحدث معها. جلست في أول الفصل ووضعت حقيبتي بجانب الكرسي وأخرجت دفتر ملاحظات وبدأت أسجل الملاحظات مع الدرس. بعد بداية الدرس بعشرين دقيقة انفتح الباب ودخل وجه أعرفه ليس بغريب عني، سارة! استدار جميع من بالفصل إلى الباب، دخلت وجلست على الكرسي الذي خلفي مباشرة وكأنها تتحاشى أعين الناس، بكل خجل أعدت وجهي إلى الأمام وأنا أشعر بكهرباء تضرب بجسدي، لم أتعرف إلى هذا الشعور من قبل؛ ولكن كل شيء يبدو جميلاً، لا أريد لأي شيء أن يتغير. العاطفة جافة جدًّا لدي وكأني شجرة في منتصف الربع الخالي لم تعرف طعم الماء منذ سنوات؛ لهذا لا تشتاق إليه؛ ولكن إذا لمس أحد جذورها قطرة ماء، فالحياة تعيد إليها من جديد.

كانت المدرِّسة تشرح عن الكتابة باللغة الإنجليزية، في ذلك الوقت لم أعرف الكثير عنها ولكن كلمة كتابة جعلت انتباهي ينصب على كل ما كانت تقول. اللغات تصنع العقليات، في الدقائق التي بدأت فيها تعلم اللغة الإنجليزية بدأت شخصية أخرى تتشكل بداخلي، طريقة الوصف والتعبير لا تشبه لغتي الأم نهائيًّا. لغتنا تهوى التعبير ويرفض تعبيرها أن يتشكل بأي لغة أخرى. الكلمة التي أزعجتني كثيرًا في الآونة الأخيرة «مثقف»، الكثير يصف نفسه بالمثقف بسبب قراءة كتاب أو اثنين، وبهذا يصبح المثقف هو وسيلة المعلومة وليس الكتاب أو حتى مصادر البحث الكثيرة بأنواعها كافة، ومنها المسموع والمقروء الآن بصفة مفتوحة. لم يسبق في التاريخ أن يكون المسموع والمقروء والمرئي أيضًا في كل مكان يعرف وبلا أي مقابل. دائمًا ما كان هناك رقابة لمحدودية المحتوى غير المقروء.

الكتاب عبر الزمان كان اللغة الأولى للثقافات. ربما الآن الأمور تغيرت. العرق البشري الآن يشهد مرحلة تغير. صار التأثير أقوى التصوير صار أفضل. صارت المعلومة أسرع والوعي صار أفضل بكثير. أنا مؤمن بأننا عند إضافة هذه الكلمة إلى القواميس كانت لرغبة الاستفادة الكبرى، للتفريق بين الشخص الذي يظن بأن تواضع العلم والأخلاق لا يطلب لقبًا، والناس التي كانت تبحث عن العلم للتنافس والاستفادة الشخصية حتى وإن كان الثمن المصداقية أو الأمانة. الثقافة محصول علمي وليست طبقة مجتمعية؛ ولكن الناس كانت بحاجة إلى كلمة لتصف هؤلاء الأشخاص. تمامًا كالإمام أو الزاهد. الثقافة تربحها ولا تدعيها.

يدعوك الناس بها ولا تسمي نفسك. كبرياء العلم لا يضيف للعلم ولا لحامليه أي قيمة. التواضع يسبق العلم.

كل هذه الأفكار تجتاحني لكيلا أضع عيني بعين سارة وأتيه مرة أخرى، فأنا بكل الأحوال في حفرة من الضياع. حاولت بكل ما أوتيت من قوة التركيز ببقية الدرس ومحاولة إخفاء نفسي بعدم المشاركة والتهرب من أعين المدرسة لكيلا تسألني. يعلم كل من ينظر إلى هذا الفصل من الوهلة الأولى بأنه لتعلم اللغة الإنجليزية، جميع الأوجه والجنسيات وإنسانة واحدة لا تشبهنا جميعًا تتحدث. انتهى الدرس ومعه ابتدأ حديث سارة.

- قد رأيتك من قبل! مَن أنت؟

- مجموعة إنسان.

ضحكت وقالت: أنا من محبي محمد عبده، عبد الله صح؟

- لا، عبد الرحمن.

- أنا سارة.

- نعم أتذكرك.

- لقد تأخرت أول ربع ساعة وكنت أتساءل إذا كان بإمكانك أن تعيرني ملاحظاتك وسأعيدها لك غدًا.

- نعم خذيها. أتمنى بأنك لا تحتاج إليها. لا أظن غدًا في الموعد نفسه هنا.

- حسنًا.

ورحلت، هذه أول لحظة أخذتني معها سارة وأخذت تفكيري. وفي يوم الغد وجدتها ووجدتني أنتظر أمام الباب قبل أن يبدأ الدرس ساعة. من بعيد قالت:

- هذه طلاسم لم أفهم منها شيئًا.

وكسرت استغرابي بضحكة:

- أمزح معك، ولكن يجب أن تأخذ دروسًا في الخط، يوجد بالجامعة هنا، كخط الصيدلي لا أفهم منه شيئًا ولكن أشعر بأن حياتي ستعتمد عليه إن لم أفكَّ هذه الرموز، أصبح تحديًّا عقليًّا وهي تضحك.

وأنا متجمد. أكملت تسأل:

- ما الذي أحضرك هنا مبكرًا؟

- سيبدأ الدرس بعد ساعة. لا شيء، صحوت مبكرًا وأفطرت وقررت المجيء إلى هنا، والسؤال ينطبق عليك أيضًا! إما أن تكوني الأخيرة أو تنافسي على الأول.

- أنا لا أنافس على شيء أنا الأول، آتي هنا قبل الدرس بساعتين لأستذكر قبل الدرس، أمس أخذني الوقت وأنا بالكافتيريا، لم أشعر به. هيا بنا إلى هناك.

وبعد ذاك اليوم صرنا جميعًا نتواعد قبل ساعتين من الدرس، تضحك وأضحك، تحزن وأحزن ونقضي الوقت جميعًا، صرنا بعدها نتقابل خارج المعهد، كانت السينما أو المقاهي أكثر ما نرتاد. والآن أنا هنا أجلس على مكتبي بعد عشرة أشهر من أول لقاء، وبعد ما اعترفت لي للمرة الأولى بأنها تحبني. خالد هو الآخر لم أره بعد ذلك اللقاء، وكأنه اختفى كليًّا. أخبرني بأنه يدرس في المعهد نفسه، ولم أرَ وجهه هنا. لا أعلم إن كان قد انتقل أو وجد سارة أخرى هو الآخر؛ ولكن سأتركه هنا عله يعود إن أحتاج إلي، فهو يعلم أني الآن أعيش ولا أحتاج إليه معي. لم أتعرف كثيرًا على الحب، مصدري الوحيد هو الكتب والأفلام المصرية القديمة؛ ولكن ما أعرفه عن جسدي هو إذا أخذ جرعة سعادة واحدة من أي شيء، تعلق كله بها، وأنا الآن أتعلق بشيء لا أعرفه ولا يعرفني.

11/1/2010

(2)

من المستحيل أن أسمع حكمة من شخص يصرخ أو يحشد للعاطفة. الصراخ والعويل يولد بالناس الشعور بالخوف والحذر. الأفكار تطير وتحتاج إلى من يصطادها بالكلمات، لهذا نحن الجنس البشري نتخاطب باللغة، الكلمات تصنع المعنى، أما الصراخ والعويل فسيجعل الناس تشعر بالهجوم. على مر العصور انقسم الناس بين اليمين واليسار، الانفتاح والانضباط. وحسب ما أعتقد بأنهم سيظلون إلى الأبد؛ ولكن لهذا وجدنا النقاش، لغة الحضارة، هكذا مُزجت الثقافات، والعلوم، العويل بالعادة حجة التائه فهي تضيع من يستمع إليها إلى أن يفقد التركيز ويسلم للعاطفة، والتي بدورها من الممكن أن تتسبب في خسائر فادحة، الخطابات المتطرفة على مدى التاريخ سواء من هتلر إلى ابن جاركم الذي يدعو للقتل والتشريد بسبب أنه لا يريد أحدًا لا يشبهه أن يعيش. متى ما اتضح للجميع بأن الآخرين مهمون جدًّا لوجودك، نحن لا نحتاج إلى أن نؤمن جميعًا بشيء واحد، نحتاج فقط إلى شيء واحد يجمعنا ألا وهو الاحترام. هذا ما كنت أحاول أن أجادل به أحد زملائي الذين يشككون بأمانة زميلي من الجنسية الأخرى كونه متفتحًا كما يزعم.

الجميع أتوا إلى الحياة بشكل مختلف وسيرحلون بشكل مختلف حتى وإن تشابهنا بأشياء. يا أخي أنا أحييك لأنك تشاركني رأيك وعصريَّتك أيضًا؛ لكي نحصل على نقاش ربما تغير أنت رأيك أو أنا؛ ولكن إيمانك هذا يجب ألاَّ تدفعه على المستوى المجتمعي؛ ولكن لماذا تظن بأنه يجب أن يعرف ما تعرفه أنت حتى وإن لم يسبق بأن سمع به أو رآه! وأكاد أجزم بأنه لو قال الكلام نفسه عنك أو عن ثقافتك لرميته بالعنصرية. أليس هذا جهلاً! دفع بالطاولة وقال أنت لا تفهم، جميعهم يتشابهون، أنا عشت مع الكثير منهم. رحل وأنا أنتظر في الكافتيريا محاضرتي القادمة. لم أكتب كثيرًا الأيام الماضية، لم أشعر بالرغبة أو حتى بالتشجيع. أريد أن تسير أيامي فقط كما هي، يُعاد كل شيء، لا أريد مفاجآت. رحل ورحل معه التباكي.

سارة، لم أتحدث مع سارة منذ أسبوعين وهذه المرة الأولى التي تختفي. بالعادة أراها كل يومين أو ثلاثة؛ ولكن الآن لم أرها منذ أسبوعين. لا أعلم حتى إن كانت لا زالت تدرس هنا أم لا، حاولت تكرارًا الاتصال بها ولكنها اختفت. وكأنها حب أرز في بستان ذرة. قابلت خالد قبل يومين، لم أره منذ سنين. كان لقاؤنا سريعًا، وكأنه كان على عجل، ويقول لقاؤنا عما قريب سيطول، ورحل.

10/10/2012

الفصل الخامس عشر

«هنا أترك كل شيء، لن أبحث عن أي شيء آخر».

الكاتب

(1)

جميلة.. تتراقص بهدوء! فاتنة.. تتمايل بنغم.. يموت الكلام وينتحر الشعر.. قبل انتهاء الوصف وموت المفردات.. كتبتُ أغاني العجم في تفاصيل عينيها الجميلتين.. هل تعلم هي يا تُرى! هل تعلم بأن قلبًا عاشقًا مات من شدة العطش! وأي عطش ذا! مغرّم أنا بل مجنون.. أردت أن أكتبك ولكن تخاذلت حروفي.. انسحبت! جلبت لي العار! كانسحاب العرب من الأندلس.. تفرقت قلوبنا كملوك الطوائف.. هل أنتِ سحر؟ لا عجب فقد فاق سحرك جمال مدينة غرناطة وأزقتها.. فاق قصر الحمراء.. وأي جمال أتحدث عنه بل ينحني القصر لجمال أميرته.. آه كم أتعبني التفكير بك.. بتُّ أفكر بأني لو رأيتِك في عصر الإغريق لأصبحتُ سقراطًا آخر.. ليس سقراط الإنساني.. بل سقراط المحب العاشق الهائم.. يصرخ بأعلى صوت مناديًا اسمك في شوارع أثينا. كرهتك.. آه كم أكرهك، بل أحبك.. لا أعلم.. فقد تناثرتُ بين هذه المشاعر قبل أن أفقد نفسي! بحثت عنك مرات ومرات.. أجعلتِ من قلبي بروازًا لصورتك؟ ماذا فعلتِ بي.. هل حقًّا سنلتقي؟ ما زلت. لا أعلم.. أكتبُكِ وأتحدثُ إليكِ.

(2)

انثري الأوراق في عرض الطريق إن لم تعودي، لا تزيدي لهفتي..! اجمعي الأوراق في فصل الخريف.. واحسبي حجم اشتياقي، وحرقتي، ونشوتي.. اكتبي اسمي على الورق كله.. ثم اصمتي! تعبت من قسوة الأيام لكن لم أتعبك! لن أقول إنك المخطئة ولكني على صواب! تركتِني في مهب الريح.. فتجمد قلبي! ثم هل اشتقتِ الآن؟ وهل يُعقل بأن جهازك العصبي ما زال يتأثر؟ أحاول ألا أسيء فأرثيك، ثم ها أنا ذا أبكي على حبك كل ليلة.. لكني لا أحبك! نعم كنت مهووَسا ولكني جننتُ فعلاً! هل يرضيك هذا كله؟ هيا اذهبي الآن.. وانثري الورق كله في عرض الطريق.. واكتبي اسمي عليها.. أخبري البشرية بأنك سبب جنوني ثم ارحلي.. ابتعدي جدًّا فأنتِ ضارة.. غير قابلة لتصدير المشاعر..! أتذكرين حين قلتِ إنك ستظلين هنا دومًا.. وأكدتِ أن تُضيئي من عشقي لك.. كالشمعِة كنتِ! وأنا كنت الفتيل.. أحترق لك..! أتعلمين بأنك مذهلة هذه الليلة.. أنا آسف، فقد جعلت هذا الزخم العاطفي كله يشوش روعتك.. من أين لك هذا الجمال كله.. بعد هذه السنين كلها ستظلين كالوردة؛ متفتحة طوال أيامك! الوردة المسمومة طبعًا.

(3)

يا جميلة يا مثيرة يا أميرة.. يا جمال الكون فيكِ يا شعاعًا؛ انبثق من سواد عينك واستقر.. في قلبي المرهف، وأعلنت الضياع.. يا عبير، يا جمال.. يا غنج، لكِ أعلنت النفير؛ افتحي قلبك وعدِّيني أسيرًا.. يا انتحار؛ عينك اليمنى ترغب باللجوء وعينك اليسرى لاذت بالفرار، يا جفاف عيني يا بشر.. يا هدوء يا نسيم البحر.. يا سراب قلبي العطشان فيك.. أرويه.. انظري إليّ، اسأليني، حاوريني.. اشرحي لي، حدثيني، خبريني.. اجعليني حلمًا له نهرب في سلام.. كالطبيعة، كالمطر، كالحمام..! يا ملام عقلي المشغول فيكِ حرريني.. أبعديني، لم أعد حتى أنام.

(4)

يا خوف، يا ذكرى ألم، يا هم، يا كثرة الندم، يا حب، لك حبي انعدم، يا ذاك لك شوقي انهدم، يا صاح أصبح الحال جدًّا خطيرًا، يا قلب حدد لي مصيرًا، يا عينُ أصبحتِ ضريرًا، يا زين مثلك لا يصير، يا حياة يا رغبة سلام، سأتوقف عن كثرة الكلام.

ويحك قلبي لا تزيد مواجعي، وقلبي المغلوب يأبى الرجوع، دمع ودم وحزن حبيس مدامعي، وعقلي المسحور لا يرضى الخضوع، هل بانسحابي سأرضي تواضعي، أم لقلبي بحبك حق الخشوع.

(5)

صار اليوم شهرًا، والشهر سنةً، والسنة دهرًا، والدهر أتعبني أنا، أموت من القهر، أصيح من العناء، سهرت إلى الفجر، انتظرتك تمر هنا، أخذني شوقي بعيدًا، يا صاحبي لا تزيد، كفاك عني تغيب، أتعبني التنهيد، أحتاج إليك أنت اليوم، لقياك عندي عيد، أحتاج إليك أنا دومًا، يا رغبتي لا تلومي.

(6)

ويلي من الثغر الجميل إذا ابتسم، ورماني بشرارة حمراء أصابت فتيلاً، ويلاه يا ثغر الجميل كم انحسم، فغير جمالك لا يُعد جميلاً؛ ويحك يا هذا الجميل سقط العلم، فهل لقلبٍ عاشِق أن يموت قتيلاً! أنا الذي تجرع من هم الزمان حتى كلِم، فلم أحبك واحدًا بل جيلٌ، مكحولة العينين.. منحوتة الجسم.. أمنياتي كلها ليست سوى التقبيلا.

يا عازف الألحان يا لحن الهوى، يا روعة الإنسان يا أجمل بشر، يا أفطن الأذهان القلب انكوى، ذكراك في قلبي تولد لي القهر، أسقني حبك وناولني الدواء، اظهر في ليلي يا أروع قمر.

(7)

رأيت الجميلة بثوب أبيض ولم أر سوى الجمال بأم عيني فاكتفيت، فقلت يا بدر الدجى قتلتِ قلبي، ولم أخاصم قلبك يومًا أو اشتكيتُ، فقالت يا جميل العين مهلاً، أحبك من كل قلبي ما حييت، ولكن لا خيار لي ولكن بكيت حبك من قلبي بكيتُ، ولما رأيتك والعيون تصافحت، من داء العشق أنا حقًا شُفيت.

(8)

كفى بك أنتِ، أنا اكتفيت، بكل الجوارح لك ارتميت، بحبك همت، وقضى العقل وبقلبي انقضيت، يا أجمل الجميلات يا رحيق الزهور، يحبك قلبي لِمَ لا تزور، كفاك يا عين المليح غرور، يا جمال العقل يا روعة الوهاب، لحبك أنا لا أريد الأسباب، فقلب المولع حبيس السرداب، يحضر جسمه والعقل غاب، فلا تلم الجريح الضعيف، بقلبك لحبي لم لا تستضيف، أحبك وحدي وأنت بعيد، وتصنّع الحب هو ما تجيد، كتبتك حرفًا، وسطرًا، وشعرًا، عشتك يومًا وشهرًا ودهرًا، فحبك قهر، وقربك صبر، وبعدك مر، والوقت يمضي وسرقتِ العمر، بالله هل حملتِ من صدري الجمر، ليوم واحد فقط، وسأجعل من بعدها لك قلبي دارًا تزهر بك ولك به كل الأمر.

(9)

يا روائع جبران يا سرور عيوني، يا ريشة بيكاسو الفنان، يا أسباب جنوني، يا سطور نجيب، جعلت قلبي يخيب، يا موسيقى عبد الوهاب، أتعب قلبي العتاب، يا قصائد نزار، ألحقتِ بقلبي الأضرار، أيحق لي الاستعلام؟ فلقد ملأت قلبي بالألم، أما زلتِ تحبينني، أم أنكِ على خصام؟ فقد جف نبع حبك، ولا حيلة لي سوى الكلام، هل للحب وجود؟ هل قلب الحبيب الموعود ستروين؟ هل أخطأت أنا؟ أم أنت بجفائكِ تعودين؟ لا أعلم فأنا أعشق الفنون، وقلبي هائم بك ومفتون، ودموعي لا يجف مصابها، وأنت لا تحاسب كالمجنون، من سيحكم لي؟ وإلى من أشكوك؟ وأنا أحضر جسدًا وعقلي مفقود، أستظل قلوبنا بحزن؟ أم للسعادة عودة ولو بعد قرن، أريد أملاً، أو لا أريد الحياة، أتعبتني العلل، كالعطشان بلا مياه، أبكيكِ في بعض الأحيان وأرتمي، في أحضان الكتب لعلي ألتهي، وأنا زادت بي الأشواق، قرأتكِ في نجيب، وسطور نجيب لي تجيب، تواسي الألم وتداوي الجروح، أردت بجمال الفن أن أغذي الروح، أما أنتِ فروح بلا روح، وإن قرأتُ جبران سرقتِني، وأمسيت بك حيران، أما عبد الوهاب فلم أسمعه من بعد ذاك الغياب.

(10)

يا بقايا الذكريات، يا خلود السعادة، يا فكرة سعيدة في عقل رجل محطم المشاعر، أيقظتني من سبات حزين، نقلتني من لحظة إحباط إلى الإيمان بأن بإمكاني تغيير العالم، عالمي الصغير بعد أن عادت إليه الحياة بترديد اسمك في قلبي المتشبع بك، كالماء والزرع انزرع حبك بداخلي، ضرورة لهذا الجسد وجودك في عقله، حتى ولو فكرة.

(11)

تسألني إن كنت لا أزال أحبها، وهل لشخص مثلي أن ينسى جمال تينك العينين؟ نعم ما زلتُ أحبك، ولكن ليس كما أنتِ اليوم، أحببتك صغيرة، جميلة، ملكي وحدي، أما اليوم فأنتِ صغيرة، وجميلة ويملكك غيري، لا أستطيع المشاركة بقلبك، ولكن أحببتك وما زلتُ أحبك عندما كنتِ وحدي بقلبك، أقف هنا أنتظرها تعود، على أن تتذكر قصائدي، وتعود كخيال، أم حقيقتها مستحيلة، وما هي الكلمات سوى أدوات نستخدمها لنشكل العالم الأجمل، فأنا أمضيت أيامي أكتبك وأشكل عالمي. ولكن حتى بكلماتي فأنتِ تعيشين هنا معي.

(12)

ببساطة وإنصاف، من منكِ أجمل بالأوصاف؟ فإذا قلنا إن العدل حق، فلا عدل منك أو بك، وإن قارناك بغيرك، فهذا أكبر إجحاف. يا إسرافًا في الجمال، يا شبعًا للعيون، لمَ كل هذا الجفاف. أسألك وأقول وأكرر، هل حدث بعد ذلك خلاف، أم اخترت أن ترحلي بسكوت؟ تركتِني حزينًا في يوم الزفاف، الكل يفرح ويرقص وأنا قلبي ببطء يموت.

تشكل الكلمات ويظهر جمالها، توظف الكلمات ويختفي لمعانها، فأنتِ الجميلة، العفيفة الشريفة، بوصفك أنتِ تتوه الصفات، فلا لغة تستطيع وصف كل هذا الخيال، ولا لعقل أن يتخيل كل هذا الجمال، فنحن بشر، وهذا قدر، وأنتِ محال بهذا العقل، جمال العيون يثير الفنون، وبالفن قلبي معلق ومجنون، فلا فن بشرٍ كعينكِ أنتِ، ولا حتى بشر كعينكِ أنتِ.

وكما قلت إن جمالك خيال، فلا خيال بشر كعينكِ أنتِ.

عيونها جميلة، وشفتاها أجمل، وقلبها أبيض، ليس سوى الحب يحمل، نظرتها في سكون، وعدت الدقائق، لحظات تموت، في كل دقيقة تصرخ، من الجمال تفرح، وقفت جانبي ترتجف، تخاف الحديث أمام الناس، فمثلها نتأمله، تسرق الأنفاس. نظرت إلي وتقول، أين أنت يا عبد الرحمن، من أنا وماذا يحدث الآن، فقدت كل تركيزي، بجنونٍ تصرفت، من يلوم الضعيف، بحضورها تجبرت.

(13)

يقال إن النهايات يجب أن تكون جميلة. أنتِ الجمال فالنهاية لا تعيش هنا، من يريد إنهاء الجمال مجرم حقًّا، وأنا القانون وكلي ملام. كيف لعقل بأن يقف لدقائق عن التفكير فيك، كطبيعة جميلة، كأغنية جميلة، جمالك يداعب العقول. دعينا نبدأ قبل المقال عن حبي لك أن أبلغك أنك مخلوق يستحق الدراسة. فإن قالوا إن السعادة مال، أيُعقل أن لذة المال تفوق كل الجمال. وإن قالوا إنك تبالغ لأن لها قلبك مال، أقول من نعم الله البصر، وله أشكر وسلطان، ولو كنت أعمى ووصفت كل هذا الجمال، لعشقتها في عقلي وخيالي وبها قلبي من الحب سكر. وكتبت بك قصائد وغنيت أجمل موال.

(14)

ببساطة وباختصار، أتعبني جدًّا الانتظار، أهلكني كثرة الصبر، يجب أن أصدر في حبك قرارًا، أو حان لي وقت الفرار. يا جمود، عقلي الواعي بقراره، قلبي يصنع لي قيودًا، أبتغي أن أتحرر وأروح، كفى يا نسمة جروح. يا جميل يا وجه جدًّا سموح أقبل وادعُ بإشارة، من بعيد أرفع يدي وأشير، وللوداع هذا المؤشر، ما أقدر أقرب وأزيد وأعشقك وأبدأ جديدًا، أحمل آلامي وأغادر قلت لك جدًّا صابر، وحانت اللحظة الحزينة، أكتبك قصة جميلة وأذكرك بالخير دائم، ضعت في حلم طويل للتو يا زين قائم، أتركك هذا حلم، وفي الحقيقة يا عقلي نم، لقلبي بحبك قرار. ما لحبك غير حاضر.

(15)

أصبتِ بعينكِ قلبي وأشعلتِ بعينكِ شرارة، هويتك اليوم بقلبي وعقلي وأصبح الحب قراره. يا رسول الحب نادِ، جُن عقلي وفؤادي، يا بحر الشعر ثُر، يا جمال الكون زُر، من سواك بالكون حور. اذكري كل الجروح والزعل، اذكري الرضا والملل، بعثري ذلك الجموح، اذكري من أنا، من بحبك قد فنى. يا حقل الزهر ميل، للحبيب الجميل، يا صغير قلبي أصبح لك أسيرًا، حبك بقلبي أمير، يا سماء يا دفء يا فضاء يا رضا يا قضاء يا نجوم حبك بقلبي يدوم، يا عوالم شيدت فيّ معالم. وبالنهاية والأخير قلبي بحبك ضرير.

(16)

واضحة كالحقيقة، رائعة كالخيال، لو ترجيتك دقيقة، خاطري أسأل سؤال؟ لو تمنيتُك عمرًا، أنتظر أن تمر، لو خيالك مر بي، يكفي لي عيشة دهر. إيه سؤالي ما نسيته، انسي أني أسألك. انتظرتك كل السنين الدقيقة ما تفيد، أجرح وأكرر وأزيد، ما نسيتك ترحلين، لا أريد أن أرجع أعيد.

بالطريق الطويل، تعبت الأرجل معاك، يا عديل يا جمال يا ملاك، من له أتعب سواك، لكن طال مشيي وانمحى معلم خطاك، صبري قليل يا خلي بجفائك لا وربي، هي ديار وهي شعوب رأيتها أبحث لعينك، ولا وجود اختفى حبي سبيلك.

(17)

سعيد بأنك من قال بنفسه، لن أجعل أحدًا يتقرب مني، وحكاية حب من همسة، وعيون سود تفتني، وبهذا أبدأ قصتنا، وحقيقتنا ورواياتنا، وبها أشرح أعذاري، لعلك يا عشقي تفهمني. وأول شيء وقبل الثناء، أتعبني بعدك والعناء، والشيء الثاني يا جميل، عجل بوصلك لو قليل، والثالث القلب مشتعل، من لهب الشوق وأنا الحرير، وأخيرًا وليس بآخر، ما سبق جدًّا ساخر، في خيالي ليس غيرك يسكن، ولقلبي ليس غيرك يفتن، وأنت تقسو وتجور، شيدت فنادق وقصور، لقلبك الكل يزور. بخيالي أتسلى لحظات، أدخل لنفسي بها سرور.

(18)

يا مساء الورد يا الوجه الجميل، يا مساء العطر يا أجمل ملاك، أسألك بالله لم قلبي لك يميل، يأخذ الإحساس في سكة هلاك، يا صباحي يا مسائي من سنين، يا سنين عشت من وجهك جفاف، سنتان أرقبك انتظرتكِ، أقول يا رب عساك، أرتقب ثمن رحلة أتبع خطاك، أتبع الإحساس في سكة هواك، هي صدف أو مقاصد أو حنين، لم تركتني أبحث عن دفاك، عند باب البيت حسك لي يبين، بعد كل هذا الإحباط أشرق لي حلاك، حسك المرهف أمشي وراك، غير حقيقي طلع مجرد خيال. أتدري كيف الحل يا الورد الجميل، أشتري غدًا بذلك وأنتظر أن يجيء، هو خيال أم حقيقة لا يهم ما الطريقة.

(19)

سئمنا من حياة كالممات، من وجوه، من أناس، من صفات. لا رثاء لقلبي تائهة كالكفيف، لا يرى النور قد تساقط كل ما به كالخريف. الإحباط حقًّا ما أعاني، للأمان رسم عينيك دعاني. كاليتيم كل الآمال تلاشت، الحروب الوباء تفشت. من مقلتيها حكت وكأنها تسأل ما بك، أبيض الشعر شاب شبابك، صبي أذكر الأيام بك. قلت العاشقين بالطرقات غنت، وأنا وحدي وقدماي عنت. هل لي فرصة استبحتك دقائق، عاشق ولهان صادق، لثوانٍ أشرح الأحوال على عجل، احمر وجهها وتبسمت بخجل، قالت السماح تعدى، والفراق تبدى، ها أنا بالطرقات أغني، فحبك حقًا لعنني. من سنين ترك قلبي الحزين دربك لم تعد مناي قربك، اللقاء يا صديقي أشكر لك، أتمنى أن تجد من يسحرك.

الفصل السادس عشر

«أحب القصص لأنها تجعلنا من نكون، القصص تتغير في كل الأحوال، الكل الآن أوضح من الواضح إلا أنا مخفي».

الكاتب

(1)

لم أدون منذ فترة بسبب انشغالي بحساب بعض المشاعر ومحاولة استيعابها. كلمني أبي قبل يومين يقول لي إن أمي وأخي محمد قد غادرا هذه الحياة، إلى مكان أجمل وهما في طريقهما إلى مكة. لا أعلم كيف أتعامل مع هذا الفوج العاطفي. تستوقفك الحياة للتفكير بما تملك، وأين أنت، الموت لا يستأذن. لم أنم منذ يومين، سوى لدقائق وتغزوني كوابيس تريد أن تأخذني معهما أيضًا. لا أعلم ما بقي فيّ من مشاعر؛ ولكن كنت أظن أن الموت والحياة وجهان لعملة واحدة. أما الآن فأنا أجزم بأن الموت أثمن. شعوري مخيف جدًّا، أشعر بأني فقدت شيئًا نفيسًا، أشعر بأني فقدت الأنا. وأين أكون، إحساس أو شعور أصف به ما حولي. البشر يتوافدون على هذا المقهى ليبتاعوا القهوة. في سكند كوب قريب من يانج وشبرد في شمال تورنتو. جميعهم تتغلف وجوههم بالمشاعر وأنا لا أعرف من أكون. أريد أن أنفجر بالبكاء ولكن أخاف من نظرة العطف، التي هي أشد علي من الموت. قابلت خالدًا بالأمس ولم يكن لقاءً سهلاً. بدأ خالد يتفوه بكلام أسود، ويقول لي أنا أنت وأنت أنا. لا أفهم ما الذي كان يحاول الوصول إليه ولكن الحياة هنا لم تعد تطاق، أحتاج إلى أن أشد رحالي إلى مسقط رأسي، سأرحل بعيدًا، وأتمنى أن تجدني في يوم ما.

ربما سيرميني الناس الآن بالجنون كما فعلوا مع فان غوغ. هو فنان الآخر، لم يكن يحتاج إلى إثبات نفسه لأحد، كان يهوى المشي كما أحب، وأخوه ثيو من آمن به كإيمان أخي عبد العزيز. ما مدى التشابه بيننا يا تُرى؟ كان مختلفًا. الفن عبارة عن عدم توازن مشاعر، أو في الحقيقة مفرطة قد لا يتقبلها بعضهم. الضعف في بعض الأحيان، كما بيّن فان غوغ بلوحاته. وهو يرسم نفسه حزينًا يرى نفسه ويرسم نفسه. كان يريد إيصال مشاعره إلينا، وأظن أنها ستبقى لسنوات خالدة، وكم فنان غيره رُمي بالجنون حتى جنَّ فعلاً. لماذا الاختلاف دائمًا مرفوضٌ؟ وهل فان غوغ هو من اختار أن

يكون فنانًا أم دفعته الحياة إلى ذلك، أخرجت كل ما فيه، حقول الذرة وجمال الطبيعة، كل شيء لا يهم الآن.

1/11/2012

(2)

أمسكت أوراق الذكريات والمذكرة بين يدي ومسحت على جبيني، خرجت من المساحة الفكرية المحبطة وخرجت من الباب، أخذت أحمل قدميّ متثاقلاً، ما أعاد هذه الذكريات كلها؟ كدت أنسى هذا كله لولا أني احتفظت به في هذه المذكرة. وسارة، أرى اسم عبد الرحمن يتكرر كثيرًا ولا أرى اسم سارة، فتحت على صفحة أخرى لعلي أخرج من هذا الإحباط. ذكرياتي هي، يحق لي أن أمسحها إذا أذنت هي، لم تأذن؟ فهي ذكرياتي أنا، ولكن نسيانها، اجتثاثها من قلب صادق يحتاج إلى إذن، إلى عذر ولم أزل إلى هذا اليوم لم أجد ذلك العذر. ما زلت أتساءل ما كان بإمكاني عمله بشكل مختلف لتختلف الأقدار، بصدق وأمانة أنا لا أعيش حياة مزرية بدونك، الحقيقة أنا سعيد جدًّا في غرفة مظلمة ولا أستطيع حتى أن أتذكر ملامح وجهك. لست متضايقًا ولا أفكر كثيرًا؛ بل أغوص بالأفكار في بعض الأحيان؛ ولكن لا أفكر كثيرًا بك. أفكاري غَبِشة، وأحس بأني إبرة تائهة في كومة قش، كومة قش مشتعلة بالنيران، أحدهم رمى عود ثقاب مشتعلاً، والكل ملتهب هنا. جلست على درجات منزلنا العزيز وأخذت أحاول أن أكتب هذا الكم من الأفكار المفاجئ، الطوفان الحزين، أنتِ وفقط أنتِ. من أين أتيتِ حتى بالنصوص تخرجين لي وكلك حياة وكأنك لا زلتِ تعيشين معي هنا. أخرجوهم مني أخرجوهم مني.

11/11/2012

النهاية

كم مرة سُئلت من أنت وعرفت الإجابة؟ لا أعلم كيف وصلت إلى هنا؛ أنا كل سطر كتب وأنا كل حرف تطرز وأنا كل قطرة حبر سقطت على ورقات عالمي. سافرت بالخيال كما قال لي أبي، وجدت أصدقاءً من موكلي وشمامة. واقعي وخيالي إلى حد الجنون، ومَن يقول إن الخيال ليس منطقًا. هل سمعت من قبل بتشتت الانتباه؟ إن وجدتني في أول محاولة، فتحية خاصة مني لك، لقد تركت الكثير مني هنا. وإن استغرق منك وقتًا ومحاولات فأنا لست كتابًا مفتوحًا، أحتاج إلى وقت للمعرفة ولا أحب الأحكام ولا أعيش معها. تحية خاصة مني وأتمنى أن أجدك عما قريب في مكان آخر لا أظن أني سأطيل هنا.

أنا أبدأ هنا.

أنا أنتهي هنا.